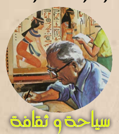
الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر
دار الكاتب العربي

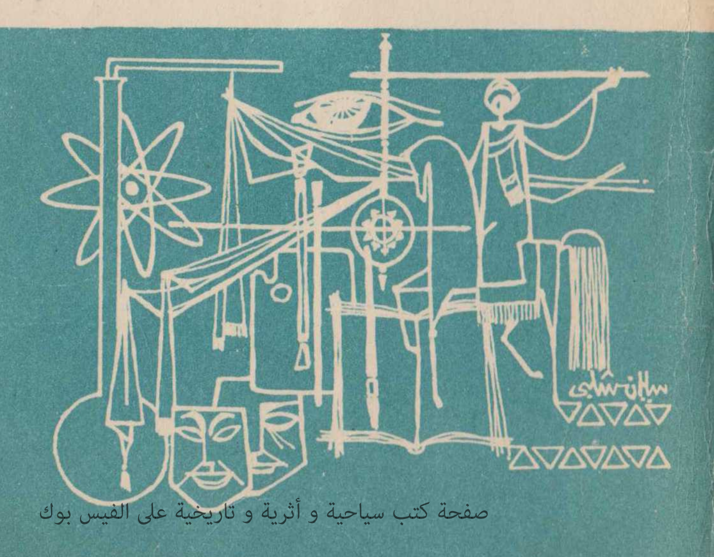


موسى .. مصريًا

(نظرية فرويد فى التاريخ اليهودى)

بقلم : محمد العزب موسى





- حصل على ليسانس الحقوق (١٩٥٥) وماجستير العلوم السياسية (١٩٥٩) من جامعة القاهرة .
- يعمل بالصحافة فى مجال السياسة الخارجية .
- من مؤلفاته :
  - انشودة الصقر (١٩٦٠) .
  - أول ثورة على الاقطاع (١٩٦٦).
  - حرب الأفيون (١٩٦٨) .

  وله فى هذه السلسلة هزيمة الهكسوس (١٩٦٧) .
- له مقالات فى السياسة والأدب والتاريخ والتراجم نشرت فى مجلات الكاتب والمجلة والفكر المعاصر وصحف اخبار اليوم .



محمد العزب موسى

المكتبة الثقافية

(جامعة حرة)

- خلاصة الفكر القومى والإنسانى
- تجمل المعرفة متعة تعمق الشعور بالحياة ، وسلاحا يساعد على الانتصار فى معركة الحياة

يشرف على السلسلة

الدكتور شكرى محمد عياد

أول نوفمبر سنة ١٩٦٩

الثمن ٣ قروش

المكتبة الثقافية
جامعة حرة
٢٣٠

موسى .. مصريًا

(نظرية فرويد في التاريخ اليهودي)

بقلم : محمد العزب موسى

دار
الكاتب العربي

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر
(دار الكاتب العربي)
١٩٦٩

قناة الارشاد السياحي على اليوتيوب



سياحة و ثقافة

قناة الكتاب المسموع

صفحة كتب سياحية و أثرية و تاريخية على الفيس بوك

مقدمة

سيجموند فرويد عالم من أكثر العلماء شـهرة فى العصر الحديث ، فهو واحد من الذين فتحوا أبواب هذا العصر على مصراعيه أمام العقل الانسانى ، فقد اكتشف فرويد آفاقا بعيدة للمعرفة البشرية ، وارتاد مجاهل النفس المغلقـة ، وهاجم الوحوش الكاسرة فى أعماقنا ، وعرض لضوء الشمس مناطق مجهولة وغامضة كانت مرتعا للقوى التى لا نفهـم عنها شيئا .

ولم يسلط فرويد أضواءه على نفسية الأفراد فحسب، وانما سلطها أيضا على نفسيات الأمم والجماعات ، فهـو يعتقد ان الجماعة البشرية ذات نفسية خاصة ومعقدة كالفرد تماما ، ويمكن أن تخضع أيضا للتحليل النفسى ، ويسرى عليها مايسرى على النفسية الفردية من ألوان الكبت والتحويل والاعلاء والمقاومة .

وقد نشر فرويد فى نهاية حياته كتابا عن اليهـود

تناول فيه النفسية اليهودية بالتحليل التاريخى والنفسى ، وتوصل الى نتـــائج جديدة تماما تصدم ما استقرت عليه الأفكار منذ القدم • هذا الكتاب هو « موسى والتوحيـد » Moses and Monotheism وهو يضم ثلاثة أبحاث ظهر البحثان الأولان منهـــا فى مجلة ايماجو Imago الألمانية عام ١٩٣٧ ونشر البحث الثالث بعد وفاة فرويد فى لندن عام ١٩٣٩ • وسوف تقتصر هذه العجالة على تقديم عرض واف للبحثين الأولين ، وهما يضمان نظرية جديدة متكاملة عن شخصية موسى وأثرها فى النفسية اليهودية وموضعها فى التاريخ اليهودى • أمـا البحث الثـــالث فهو يتناول بالتحليل بعض جوانب النفسية اليهـودية وتفسير ظاهرة معاداة السامية ، ونرجو أن تتاح له فرصة العرض المستقل فيما بعد •

أثار كتاب «موسى والتوحيد» ضجة كبرى منذ ظهوره وتعرض فرويد بسببه لحملة من النقد والكراهية من جانب اليهود الذين اعتبروا الكتاب مسيئا لهم الى أبعد حد ، ولذلك لجأوا الى أسلوبهم المثالى فى محاربة الكتابات التى لاتروق لهم وهو حرمانها من فرصة النشر !

فالملاحظ أن هذا الكتاب ــ خلافا لكتـــابات فرويد الأخرى ــ لم يحظ بفرصة ممـــاثلة للانتشار فى الغرب وبالتالى فى العالم ، والسبب فى ذلك احجام معظم دور النشر الكبرى الواقعة تحت النفوذ اليهـودى عن نشر الكتاب أو اعادة نشره وتوزيعه على نطاق واسع •

ونفهم سر هذا الموقف العـــدائى عندما نلقى نظرة سريعة على محتويات الكتاب ، فهو ببساطة يقلب التـــاريخ اليهودى من أساسه رأسا على عقب ، اذ يذهب فرويد الى أن موسى لم يكن يهوديا بالجنس وانما كان مصريا دما وعقيدة وأنه أعطى عقيدته المصرية لبنى اسرائيل وقادهم فى الخروج من مصر . وفى الفلاة تنكر اليهود لسيدهم المصرى وقتلوه وارتدوا عن دينه ، ولم يعـودوا بعد ذلك الى التـوحيد الا تدريجيا عبر القرون لأن ذكرى موسى ظلت قوية فى أذهانهم ولكن بسبب هذا التنكر للزعيم العظيم أصيبت النفســـية اليهودية بأول عقدها التاريخية ، فقد حاول اليهود كبت حقيقة موسى المصرى وجريمة اغتياله واقترفوا فى سبيل ذلك سلسلة من الأكاذيب والتشـويهات لتغطية هـذه الحقيقة المؤلمة .

والواقع أن سر غضب اليهـــود على فرويد لا يرجع فحسب الى حرمانه اياهم من بطلهم القومى واعترافه بفضـل الديانة الموسوية لمصر ، وانما يرجع أساسا الى استطراده فى تحليل النفسية اليهودية واثبات ما اشتهرت به من قسوة وجحود وتنكر للجميل واقتناص لأفضال الغير وعصـــيان للخالق وتزييف الحقائق وحجبها بمختلف الطرق بما فيهـا النسيان الذاتى .

فمثلا .. يقدم فرويد بحثا جريئا عن تزييف التوراة، وكيف كان أحبار اليهود يعيدون كتابتها مرة بعد أخرى على

مجرى العصور لتتمشى مع أغراضهم الى أن استقرت فى شكلها النهائى الذى نعرفه اليوم في القرن الخامس قبل الميلاد ،وقد كانوا يعمدون الى قلب الحقائق الى نقيضها بافتعال شواهد تبدو تفاهتها عند فحصها وتحليلها ، ولكن قد يسهو عليهم تحوير بعض الحقائق أو يكتفون بنقلها من مكانها الأصلى وقطع علاقتها بماحولها فتظل بمثابة أصابع تشير الى الحقيقة التى يحاولون انكارها ٠

وبالرغم من أن فرويد وضع كتابه «موسى والتوحيد» فى آخر حياته التى امتدت نحو ثمانين عاما ، وبالرغم من صغر حجم الكتاب نسبيا الا أنه يبدو واضحا أن الكتاب حصيلة قراءات واسعة وتأملات عميقة فى خبايا التاريخ اليهودى والنفسية اليهودية مما يدل على أن فرويد عاش مع موضوع كتابه فترة طويلة من الزمن ، بل يمكن القول بأن هذا الموضوع كان من أهم ما شغل بال فرويد طول حياته ، وأن اهتمامه به يرجع الى ما قبل شروعه فى كتابته بعشرات السنين ٠

والواقع أن موقف فرويد من المشكلة اليهودية بالغ التعقيد ، فهو يرفض العقيدة اليهودية رفضا باتا ولكنه لا يتحلل من كونه يهوديا بل على العكس كان متشيعا للسامية ، وقد لقى فرويد شخصيا الشىء الكثير من معاداة السامية عند قيام الحكم النازى فى ألمانيا وتهديده للنمسا حيث كان يقيم ، واضطر فرويد الى الفرار عن وجه الخطر

النازى تاركا وراءه كل ممتلكاته وأبحاثه ومدرسته فى التحليل النفسى ليقضى شهوره الاخيرة لاجئا فى لندن .
وقد نشر فرويد كتابه عن المشكلة اليهودية فى هذه الفترة العصيبة وكان المنتظر منه كيهودى أن لا يخرج بهذه الآراء التى تخجل اليهود وتحرمهم زعيمهم التاريخى وبطلهم القومى بل تجردهم من أكبر فضل ينسبونه الى أنفسهم وهو أنهم أول من اهتدى الى التوحيد وكانوا بذلك شعب الله المختار، ولكن فرويد لم يستطع أن يحبس فى صدره هذه الآراء التى كان يعتبرها « شبحا لا يمكن حبسه » بل أقدم على المغامرة مقتنعا بأنها الحقيقة التى لا يجوز حجبها مهما كانت الاعتبارات ، فنجده يقول فى مقدمة البحث الاول من كتابه « ان أى اعتبار لن يدعونى الى ترك الحقيقة جانبا من أجل ما يفترض أنه مصلحة قومية » .

ونحن اذ نقدم هذه الآراء الى القارىء العربى لا نلتزم بمدى صحتها ، فنحن كمسلمين نضع موسى فى مكانة عالية كنبى من أنبياء الله وقد ذكر القرآن الكريم النبى موسى فى سور وآيات عديدة تقص طرفا من حياته وكفاحه، ولكننا لا نقدم هنا آراء فرويد فى نطاق دينى ، وانما باعتبارها بحثا علميا يقبل الخطأ والصواب ، ولا نحب أن نقف ازاءها ابتداء موقف المصادرة كما يفعل اليهود بشبهة تعارضها مع الكتب المقدسة ، فالدين لا ينبغى أن يكون حجرا على العلم مهما بدا به من خطأ أو شطط .

أما منهج البحث فهو تقديم عرض واف يكاد يكون ترجمة حرفية للبحثين الأولين من كتاب فرويد « موسى والتوحيد » دون تدخل الا فى أضيق نطاق ، ثم عرض بعض محاولات اليهود للرد عليه ، ولما كانت أغلب هذه المحاولات غير موضوعية وانما تستهدف فى المحل الأول تجريح فرويد والطعن فى كتابه ، لذلك قمت بمناقشة جوانبها الضعيفة دون أن يعنى ذلك بالضرورة التشيع لآراء فرويد بحذافيرها .

ولكن قبل الدخول فى الموضوع لا بد من كلمة سريعة عن سيجموند فرويد أبى التحليل النفسى وأحد الرجـــال الذين تركوا بصماتهم الواضحة فى العصر الحديث .

- ١ -

سيجموند فرويد ومدرسته (*)

ولد سيجموند فرويد فى بلدة فرايبورج باقليم موارفيا عام ١٨٥٦ وهو ينحدر من أسرة يهودية يتسلسل فيها عدد من أحبار اليهود ، انتقلت الأسرة الى فينا عندما كان فرويد في الرابعة من عمره ، وفيها قضى سنى شبابه، وكان أبوه تاجر أصواف أما والدته فكانت سيدة جمة النشاط ذات شخصية ممتازة وقد عمرت الى سن الخامسة والتسعين ، وكان فرويد أكبر أولادها وأحبهم اليها ، وقد منحته علاقته هذه بأمه كما ذكر فيما بعد « شعور الغزاة المنتصرين وثقة فى النفس تقود الى النجاح »

والتحق فرويد بجامعة فينا لدراسة الطب ونال اجازته عام ١٨٨١ ثم عين طبيبا مقيما فى المستشفى العام حيث

(*) « كتب غيرت وجه العالم » تأليف روبرت داونز ترجمة احمد صادق حمدى ــ الالف كتاب .

تخصص فى الأمراض العصبية وتشريح المخ ، ولكنه بعد سنوات قليلة من ممارسته الطب حصل على منحة دراسية فى باريس للتدريب على العمل تحت اشراف الدكتور جان شاركو وهو أحد مشاهير فرنسا فى علمى الباثولوجيا والأمراض العصبية ٠

كانت طريقة شاركو هى معالجة الأمراض العصبية وبخاصة الهستيريا بواسطة الايحاء عن طريق التنويم المغناطيسى ، وقد أعجب فرويد بهذه الطريقة وحملها معه عندما عاد الى فينا ، ولكنه فى فينا لم يستطع اقناع زملائه الأطباء بوجود أساس علمى للعلاج بالتنويم المغناطيسى بل جرت آراؤه غضب رؤسائه عليه فأقصوه عن المعامل الخاصة بتشريح المخ ، ومنذ ذلك الوقت انعزل عن الحياة العلمية ، ولكنه واصل فى عيادته الخاصة أسلوب العلاج بالتنويم المغناطيسى فترة من الوقت لم يلبث بعدها أن نبذ هذه الطريقة من تلقاء نفسه لآثارها الضارة على شخصية المريض ٠ وابتكر بدلا منها طريقة جديدة هى التحليل النفسى عن طريق التداعى الحر ٠

لقد اكتشف فرويد أن الأمراض العصبية ترجع فى أساسها الى علل نفسية ، وأن هذه الامراض ليست مقصورة على المرضى العقليين الذين يستدعى علاجهم عزلهم فى مستشفى الأمراض العقلية ، وانما هى تصيب أيضا كثيرا من الاشخاص

المتزنين ، فالمرض العصبى ليس مرضا بالمعنى المفهوم ،وانما هو حالة شاذة من أحوال النفس ·

وكشف فرويد عن أن أساس الاضطرابات النفسية هو اللا شعور الذى يسيطر على الجزء الاكبر من العقل الانسانى ، فالعقل لديه يشبه جبل الجليد العائم الذى يغمر الماء (أو اللاشعور) ثمانية أتساعه ، وفى مجاهل اللاشعور تكمن العوامل والمشاعر والرغبات التى لا يريد الفرد أن يخفيها عن الناس فحسب وانما عن نفسه أيضا ، ومن هنا يتكون الكبت ، وهو عبارة عن دفن لذكريات مؤلمة فى أعماق اللاشعور قد تظهر فى مستقبل الأيام وتسبب المتاعب ·

ويرى فرويد أن النشاط العقلى فى الفرد يجرى فى ثلاثة مستويات هى الأنا والهو والأنا الأعلى · وأولها فى الأهمية « الهو » أى ذلك الجزء المغلق المظلم من شخصياتنا الذى يعسر التوصل اليه ، وهو مركز الغرائز البدائية والبواعث الأولية التى ورثها الانسان عن أصوله الحيوانية ، فهو يشمل كل ما هو موروث مع الطفل وراسخ فى البنية البشرية ، وهو قوة عمياء لا ترحم وكل وظيفتها أن تشبع نوازعها وشهواتها دون النظر الى العواقب أو كما يقول توماس مان « لا تعرف القيم أو الخير والشر أو الأخلاق » ·

أما « الأنا » فهو يمثل النفس الواعية وتحركه دوافع الحقائق الواقعية فى الحياة ، فهو متنبه للعالم الخارجى ،

ويعمل على كبح أهواء « الهو » حتى لا تصطدم بالعرف والقانون ويكبتها كبتا . ومن هذا الصراع الدائم بين الأنا والهو ينشأ العصاب الذى يؤدى الى الحاق الأذى بشخصية الانسان .

والمستوى الثالث هو الأنا الأعلى ويمكن التعبير عنه باسم « الضمير » ويشبه الهو من حيث انهما لا شعوريان والاثنان فى صراع دائم معا كأنهما فى مباراة يحكمها حكم هو « الأنا » ، فاذا حدث التوازن المنشود بين هذه القوى الثلاث شعر الفرد بالسعادة والانسجام فى الحياة ، ولكن اذا حدث أن تسامح الأنا مع الهو فارتكب هذا نقيصة خرق بها حرمة القانون تبرم الأنا الأعلى وساده القلق والشعور بالاثم وغير ذلك من مظاهر تبكيت الضمير .

وهناك أيضا قوة «الليبيدو» وأساسها جنسى ، وهى تتصل « بالهو » اتصالا وثيقا واليها ترجع كل ألوان نشاط الانسان الثقافى والفنى والدينى وهى الدافع الأساسى للابتكار الفنى والأدبى والموسيقى ، وعلى ذلك تكون الغريزة الجنسية هى مصدر كل عمل ابداعى وليست قوة آثمة ينبغى استنكارها .

ويعتقد فرويد أن « لبيد » الطفل يتجه جنسيا الى والديه والى أمه بصفة خاصة فيحبها حبا شديدا ، وكلما كبر الطفل زادت ميوله الجنسية نحو أمه بينما ينظر الى والده نظرة عداء وخوف لأنه يقاسمه حبها . ويسمى هذا

الشعور (عقدة أوديب) نسبة الى البطل الاسطورى الاغريقى الذى قتل أباه وتزوج أمه ، وأما فى حالة البنت فقد تنفصل فى عواطفها عن أمها وتتجه الى حب أبيها ، ولكن عندما يصل الشخص الى مرحلة النضج يتغلب على حبه الأبوى أو غرام الأسرة الا فى حالة الاشخاص الضعاف الذين لا يستطيعون التخلص من أسر تلك الميول فيصبحون فريسة للأمراض العصبية ·

وتوصل فرويد الى أن الامراض العصبية دون استثناء ان هى الا نتيجة اضطرابات فى الوظائف الجنسية ، وأنكر أنها تنشأ عن الزيجات الفاشلة أو الاخفاق فى الحب بين البالغين ، وانما تنشأ برمتها من عقد جنسية تكونت أيام الطفولة الأولى ، ويؤكد فرويد ان الغرائز الجنسية تلعب أهم الأدوار فى تكوين شخصية الفرد · وقد سفه ذلك الرأى عدد كبير من رجال التحليل النفسى من تلامذة فرويد الذين رأوا أن استاذهم قد بالغ فى تقدير دور الجنس ·

ونتيجة لقوانين الهيئة الاجتماعية يضطر الانسان أن يكبت فى لا شعوره كثيرا من الرغبات والدوافع وخيبات الأمل ، وعادة ينجح العقل الواعى فى الحيلولة دون ظهور القوى اللاشعورية الدفينة · ولكن قد يطرأ على الأشخاص العصابيين بسبب ذلك المجهود اضطرابات انفعالية شديدة وهنا يقترح فرويد كعلاج لهذه الاضطرابات طريقة التحليل

النفسى التى ابتكرها من واقع تجاربه مع مئات الحالات .
ومهمة التحليل النفسى « الكشف عن مواضع الكبت فى الشخص . والافراج عنها . حتى يحل محلها حكم سليم ينتهى بقبول أو رفض ما كان يخشاه قبلا » .

ولكن المريض الذى يخضع للتحليل النفسى قد يلجأ لا شعوريا الى الكبت والمقاومة ، ولذلك ابتدع فرويد طريقة « التداعى الحر » أو بعبارة أخرى ترك المريض يتكلم بكامل حريته وهو فى وضع مسترخ على أريكة وثيرة فى حجرة هادئة خافتة الضوء بينما يقتصر دور المعـالج على تشجيع مريضه على المضى فى كلامه بكل ما يعن له دون أن يتجه فى ثرثرته الى موضوع بالذات ، وبعد أن تتكرر جلسات التحليل ـ وقد تمتد عدة أشهر ـ تبدأ فى الظهور النتائج المرجوة وهى جر الذكريات المكبوتة الى حيز الشعور بعد أن تتخطى حاجز المقاومة .

ومن البديهى أن مثل هذه العملية تؤدى الى اخراج كمية هائلة من المادة المختزنة فى اللاشعور ، وتبدو هذه المادة مشتتة غير متصلة لا فائدة فيها ، ولهذا يتوقف تحليل هذه المعلومات على مقـــدرة الطبيب المعـالج توقفا كليا ، ويتضح ذكاء المحلل النفسى ومهارته من استخلاص النتائج الصحيحة .

كما استعان فرويد بحيلة أخرى للتنقيب عن الانفعالات والوان الصراع التى يعانيها المريض وهذه الحيـــلة هى

« تحليل الاحلام » وقد وضع فى هذا الموضوع أهم كتبه على الاطلاق التى تحوى خلاصة نظرياته وهو كتاب «تفسير الاحلام» ويعتبر أول مجهود جدى فى دراسة تلك الظاهرة دراسة علمية ·

وتسيطر على دنيا الأحلام قوة اللاشعور المعروفة « بالهو » حيث تستقر كل الحوافز البدائية والرغبات المكبوتة بقوة الأنا والأنا الأعلى فلا تظهر الا قسرا فى الأحلام ، ومع ذلك ففى أثناء النوم لا يغفل الرقيبان أبدا عن الرقابة ولذلك تأتى الأحلام رمزية وعسيرة الفهم مما يجعل تفسيرها يستدعى خبرة طويلة ومهارة فائقة ، فلا تؤخذ تلك الاشارات على ظاهرها الا فى أحلام الأطفال ·

وهناك وسيلة ثالثة استعان بها فرويد فى الاستدلال على ما يجرى فى اللاشعور وهى تحليل التصرفات اللاارادية مثل فلتات اللسان والنسيان المؤقت والأفعال العرضية ، فمثلا اذا نسى انسان اسم شخص فيجوز أنه نسيه بسبب كراهيته له ، واذا فات القطار انسانا بسبب التباس جدول المواعيد فقد يدل ذلك على أنه لا يريد أن يستقل القطار ، واذا حدث أن نسى رجل مفتاح منزله فقد يدل ذلك على انه غير سعيد فى بيته ·

هذه لمحة عن نظريات فرويد التى فتحت صفحة جديدة فى العصر الحديث ، وبرغم ما أخذ عليها من المبالغة أحيانا أو عدم امكان اثباتها بالتجربة الا أنها تركت أعظم

الأثر فى التفكير الحديث ، وفتحت آفاقا واسعة فى دراسة الظاهرة الانسانية بعد أن كانت النفس عالما مغلقا مليئا بالألغاز والأسرار والقوى المجهولة ، وترك فرويد بصماته فى حياتنا اليومية نفسها فقد أثر فى جميع أوجه المعرفة ولم يشذ قط علم من العلوم كالأدب والفن والدين وأصل الانســـان والتربية والقانون والاجتماع والاجرام والتاريخ والتراجم وكل الدراسات التى تتصل بالمجتمع أو الفرد عن التأثر بتعاليم فرويد تأثرا عميقا .

ويعتبر فرويد من أكثر العلماء وفرة فى الانتاج ، فقد وضع مؤلفات كثيرة صدرت فى مجموعـــة من الف صفحة من القطع الكبير بعنوان مجموعة كتابات سيجموند فرويد The Basic Writings of Sigmund Freud

ويمتاز أسلوب فرويد بالوضوح والتركيز والطابع الأدبى ومن أهم مؤلفاته علم النفس المرضى فى الحياة اليوميـــة The Psycnpathology of Everday Life وتفسير الاحلام The Interpretation of Dreams وثلاث مساهمات فى نظريات الجنس Three Contributions to the Theory of Sex والفكاهة وعلاقتها باللاشعور Wit and its relation to the Unconcious والطوطم والتابو Totem and taboo وتاريخ حركة التحليل النفسى the History of Psychoanalytic Movement ومقـــدمة عامة للتحليل النفسى Gneral Introduction to Psychoanalysis وأخيرا موسى والتوحيد Moses and Monotheism

- ٢ -
أصل اسم موسى

يبدأ فرويد كتابه « موسى والتوحيد » بعبارة تحفظية يقول فيها « أن تنكر على شعب ما الرجل الذى يبجله هذا الشعب باعتباره أعظم أبنائه ليس بالعمل الذى يمكن الاقدام عليه بخفة قلب لا سيما من جانب شخص ينتمى الى ذلك الشعب ، وبالرغم من ذلك فان أى اعتبار لن يدعونى الى ترك الحقيقة جانبا من أجل ما يفترض انه مصلحة قومية » .

ثم يدخل فرويد فى الموضوع رأسا فيقول ان موسى الرجل الذى حرر شعبه وأعطاه عقيدته وقوانينه ينتمى الى عصر موغل فى القدم الى درجة تثير التساؤل المبدئى عما اذا كان شخصا تاريخيا أم مجرد شخصية أسطورية ، ولكنه اذا كان قد عاش حقيقة فان زمنه هو القرن الثالث عشر أو الرابع عشر قبل الميلاد ، وليس لدينا أية معلومات

عنه سوى ما ورد فى الكتب المقدسة وتراث اليهود ، ولكن بالرغم من أن وجوده يفتقر الى اليقين التاريخى التام الا أن الأغلبية الكبرى من المؤرخين يعتقدون أن موسى كان يعيش حقا ، وأن الخروج من مصر تم تحت قيادته فعلا فمن المتفق عليه بأسباب قوية انه لا يمكن فهم تاريخ بنى اسرائيل اللاحق اذا لم نعترف بذلك ، وقد أصبح العلم اليوم أكثر ضررا وأكثر تسامحا فى الوقت نفسه ، ازاء التراث مما كان عليه الأمر فى الأيام الأولى للبحث التاريخى

وأول ما يثير اهتمامنا فى شخصية موسى هو اسمه الذى يكتب بالعبرية « موشيه » فالانسان قد يتساءل : من أين جاء هذا الاسم ؟ وما معناه ؟ وكما نعرف جيدا فان الاصحاح الثاني من سفر الخروج يجيب عن هذا السؤال فنحن نعرف منه أن الأميرة المصرية التى انقذت الطفل موسى من مياه النيل أعطته هذا الاسم وقالت « لأننى سحبته من الماء » ولكن هذا التفسير لا يكفى ، فان تفسير التوراة للاسم بأنه « ذلك الذى سحب من الماء » ما هو الا اشتقاق شعبى من اللغة العبرية ، ومن الهراء أن نفترض فى الأميرة المصرية المعرفة باللغة العبرية .

ومن ناحية أخرى فهناك رأى يتفق عليه الكثيرون بان اسم موسى مشتق من قاموس اللغة المصرية ، وبدلا من أن أمضى فى تسجيل أسماء المؤلفين الذين أعربوا عن هذا الرأى اكتفى بنقل فقرة عن برستيد الذى يعتبر كتابه

« تاريخ مصر » حجة دقيقة فى موضوعه ، فقد قال فى كتاب حديث له بعنوان « فجر الضمير » : « من المهم أن ألاحظ ان اسم « موسى » اسم مصرى فهو ببساطة الكلمة المصرية « موس » Mose ومعناها « طفل » وهى اختصار لاسماء من نوع « امنموس » ومعناها « أمون ـ طفل » ، أو بتاحموس ومعناها « بتاح ـ طفل » وهذه بدورها اختصار لشكل آخر هو « آمون منح طفلا » أو «بتاح منح طفلا » ثم أصبحت كلمة طفل « موس » تغنى عن بقية الاسم ، وكذلك فان كلمة « موس » بمعنى طفل ليست تعليلة الشيوع فى الآثار المصرية ، ولا بد أن والد موسى ثبت قبل اسم ابنه اسم اله مصرى مثل آمون أو بتاح ، ولكن هذا الاسم المقدس محى تدريجيا مع الاستعمال المستمر حتى أصبح الغلام يدعى (موسى) فحسب » .

يقول فرويد : لقد اقتبست هذه الفقرة حرفيا ولست على استعداد بحال أن أتحمل المسئولية عن تفاصيلها ولكن مايدهشنى بعض الدهشة هو أن برستيد فى ذكره لبعض الأسماء التى تحمل لفظ « موس » تجاهل أسماء بارزة هامة فى قائمة الملوك المصريين مثل أح ـ موس (أحمس) وتموت ـ موس (تحتمس) و رع ـ موس (رمسيس) .

ثم يعرب فرويد عن دهشته كذلك لأن أحدا من المؤرخين الذين قالوا ان موسى اسم مصرى لم يفطن بعد

ذلك الى أن هذا الشخص مصرى أو أن هناك احتمالا على الأقل لأن يكون كذلك ، فان أحدا منهم لم يخرج بهذه النتيجة المنطقية حتى أولئـــك الذين هم مثل برستيد على استعداد لافتراض أن موسى « تهذب بكل حكمة المصريين»

ويرجع فرويد ذلك الى أن التراث الانجيلى كان ســـدا منيعا فى وجههم ، اذ ربما يبدو مريعا تصور انموسى كان شيئا آخر غير كونه عبريا ، ولذلك فان اكتشافهم ان الاسم المصرى لم يكن عاملا يدعوهم الى الحكم على أصــــل الرجل • ولكن لما كانت جنسية هذا الرجل العظيم تعتبر فى غاية الأهمية فان أية مواد جديدة تقدم اجـــابة ينبغى الاهتمام بها •

- ٣ -

أسطورة البطل

فى عام ١٩٠٩ وضع أوتو رانك Otto Rank
تحت اشراف أستاذه فرويد كتابا بعنوان :

Der Mythus von der Geburt des Helden

(أسطورة ولادة البطل)

ومحور هذا الكتاب أن كل الشعوب تقريبا نسجت فى وقت مبكر من تاريخها الأساطير والخرافات التى تتغنى بتمجيد أبطالها وملوكها وأمرائها ومؤسسى عقائدها أو أسراتها الحاكمة أو امبراطورياتها أو مدنها ، وباختصار مختلف أبطالها القوميين · وما يثير الدهشة أن الاساطير المتعلقة بصفة خاصة بتاريخ ميلاد هؤلاء الأبطال والسنوات الأولى فى طفولتهم تتشابه فيما بينها تشابهـا كبيرا بل تكاد تتطابق بالرغم من أنها تشير الى شعوب مختلفة تماما أبعد ما تكون بعضها عن بعض جغرافيا ، ويقدم أوتو رانك نموذجا تتضح فيه الجوانب الأساسية لكل هذه الأساطير كما يلى :

« البطل ابن والدين من الطبقة العليا ، وغالبـا ابن ملك .

«الحمل بالبطل تكتنفه العقبات كالزهد أو العقم المؤقت أو أن يكون أبواه قد باشرا الاتصال الجنسى سرا بسبب أوامر مانعة أو أى عقبـات خارجية أخرى ، وأثنـاء فترة الحمل بالبطل أو قبلها بقليل تأتى نبوءة أو حلم يحذر الأب بأن مولد الطفل يهدد سلامته بخطر بالغ .

« ونتيجة لذلك يصدر الأب (أو من يمثله) أوامره بأن يقتل المولود أو يعرض لخطر بالغ ، وفى معظم الحالات يوضع الطفل فى سلة ويلقى به بين الأمواج .

«ولكن الطفل ينقذه الوحوش أو أناس فقراء كالرعاة مثلا ، وترضعه انثى حيوان أو امرأة من أصل متواضع.

« وعندما يكبر البطـل يكتشف أصله النبيل بعد مغـامرات غريبة ، وينتقم من أبيه . ويعترف به شعبه ، ويحصل على الشهرة والعظمة » .

وأقدم شخصية تاريخية معروفة تحكى عنها هـذه الأسـطورة هو سرجون ملك أكاد Agade الذى أسس دولة بابل حوالى عام ٢٨٠٠ ق.م (ما يعاصر عهد بنـاة الأهرام فى مصر) وتقول أسطورة سرجون عن لسانه :

« أنا سرجون ، الملك العظيم ، ملك أكاد ، كانت أمى سيدة عفيفة ، ولا أعرف لى أبا ، ولكن شقيق والدى

كان يجوب الجبال ، وفى بلدتى أزوبيرانى Azupirani على ضفاف الفرات حملت أمى ــ السيدة العفيفة ــ بى ، فولدتنى سرا ، ووضعتنى فى سلة من البـردى أغلقت فوهتها بالقار وألقت بى فى النهر ، ولكن التيار لم يجرفنى وانما حملنى الى أكى Akki الذى يسحب الماء ، وبسبب طيبة قلب اكى الذى يسحب الماء رفعنى من المياه ، ورباني أكى ، الذى يسحب الماء ، كابنه الخاص ، وجعلنى اكى ، الذى يسحب الماء ، بستانيا لديه ، وعندما كنت بستانيا وقعت عشتار فى حبى فأصبحت ملكا ، ولخمسة وأربعين عاما حكمت كملك » .

وأشهر الأسماء فى القائمة التى تبـــدأ بسرجون الأكادى هى موسى وقيرش ورمولوس ، ولكن الى جـــانب هؤلاء ذكر أوتو رانك أبطـــالا آخرين ينتمون الى عالم الأساطير أو الشعر وتنطبق عليهم هذه القصة بحذافيرها أو بأجزاء منها مثـــل أوديب وكارنا وباريس وتليفوس وبرسيوس وهرقل وجلجميش وأمفيون وزيتوس وآخرون .

هذه الأسطورة النموذجية التى توصل اليها أوتو رانك ومضى فى تطبيقها على مختلف الأبطال القدماء يفسرها فرويد بأن البطل هو الرجل الذى يقف برجولته فى وجه أبيه وينتصر عليه فى النهاية ، وتوضح الاسطورة أن هذا الصراع يعود الى فجر حياة البطل لأنه ولد ضـــد ارادة أبيه ، وأنقذ برغم نوايا أبيه الشريرة ، أما الوضع فى السلة

فهو يرمز الى الميلاد ، فالسلة هى الرحم ، ومجرى الماء هو فترة الحمل ، وفى كثير من الأحلام تظهر العلاقة بين الطفل ووالديه فى صورة عملية سحب أو انقاذ من الماء . وعندما ينسج شعب ما هذه الاسطورة حول شخصية شهيرة فان ذلك معناه الاعتراف به بطلا وان حياته تتطابق تماما مع النموذج الدقيق للبطل . أما المصدر الداخلى لهـــذه الأسطورة فهو « غرام الاسرة » لدى الطفل أى الرومانسية التى تتحدد بهـــا ردود أفعال الطفل نحو أبويه وبخاصة والده ، فالسنون الأولى من عمر الطفل يحكمها الشعور بعظمة أبيه وتقديره الفائق ، ويتصور الطفل فى أحلامه وقصصه الخيالية ان الملوك والملكات يرمزون الى أبويه ، ولكنه فيما بعد وتحت وطأة الخصومات وخيبات الامل يبدأ الطفل فى اطلاق سراح نفسه من أسر أبويه ويتخذ من أبيه موقفا انتقاديا . ومن هنا فان الاسرتين اللتين تتحدث عنهما الاسطورة ، وهى الاسرة النبيلة والاسرة المتواضعة ، ليستا فى الواقع سوى صورتين لأسرة الطفل الخاصة كما تبـــدو لديه فى مراحل حياته المتعاقبة .

ويشرع فرويد فى المقارنة بين هذه الاســـــطورة النمـــوذجية وأسطورة ميـــلاد موسى ونشأته فيجد انهما متباعدتان وأحيانا تتناقضان تماما .

ولنبدأ بالأسرتين اللتين تتقاسمان مصير الطفل فى الاسطورة ، وقـــد رأينا أن التفسير التحليلى يجعل منهما

أسرة واحدة وأن الفارق بينهما هو فارق مؤقت فحسب ، فنجد أنه في الأسطورة النموذجية تكون الأسرة الأولى التى ولد فيهـــا الطفل هى الأسرة النبيلة أو الأسرة الملكية ، والأسرة الثانية التى ينشأ فيها الطفل هى الاسرة المتواضعة أما فى حالة موسى فالوضع مختلف ، فالاسرة الأولى أسرة متواضعة للغاية فهى أسرة يهودية فى الأسر ولكن الأسرة الثانية التى ينشأ فيها موسى هى الاسرة النبيلة أو القصر الملكى نفسه الذى يترعرع فيه كابن للأميرة المصرية ، ويلاحظ فرويد أن هذا الفارق الضخم عن النموذج المعتاد فى أساطير الابطال أدهش كثيرين من الباحثين الى درجة أن ادوارد مائير وآخرين افترضوا أن أصل الاسطورة كان مختلفا وانها كانت فى البداية كما يلى : شهد فرعون رؤيا حذرته بأن ابن ابنته سيكون خطرا عليه وعلى مملكته فأمر بالقاء الطفل فى مياه النيل بعد مولده بفترة قصيرة ولكن الطفل أنقذته أسرة يهودية وربته كابنها .

ولكن امعان النظر يفضى بنا الى أن وجود أســـطورة أصلية عن موسى من هـــذا النوع الذى لا يختلف عن النمـوذج النمطى لأساطير البلاد لا يمـكن أن يتحقق لأن مثل هذه الأسطورة اما أن تكون من أصل مصرى أو أصل يهودى ، ويمكن استبعاد الغرض الاول لأنـــه ليس لدى المصريين دافع لتمجيد موسى فهو بالنسبة لهم ليس بطلا ، ولذلك فلا بد أن تكون هذه الاسطورة قد نشأت بين الشعب اليهودى ، ولكنها لهذا السبب بالذات تكون غير ملائمـة

بالمرة : اذ ماذا ينتفع شعب بأسطورة تجعل بطلهم أجنبيا ؟

ولكن هناك جانبا واحدا من الاسطورة النموذجية يظل قائما فى أسطورة موسى وهو أن الطفل واصل الحياة بالرغم من القوى المعاكسة الخارجية ، ومن الملاحظ أن هذا الجانب قد تكرر أيضا فى التاريخ المبكر المسيح ـ حيث يقوم الملك هيرود بدور فرعون ـ ولذلك فمن حقنا أن نفترض أن أسطورة مولد موسى على النحو الذى وردت به فى التوراة قد اختلقت فى زمن لاحق وأن صانع الأسطورة وجد من المناسب أن يسلح بطله موسى ببعض الصفات الكلاسيكية المنسوبة المبطل الاسطورى ٠

بهذه النتيجة السلبية ، بل وغير المؤكدة ، ينتهى بحثنا فى هذه النقطة دون أن نخرج بدليل مؤكد على أن موسى كان مصريا ٠٠ ولكن ألا يوجد مدخل آخر لفهم أسطورة موسى ذاتها على نحو أكثر توفيقا ؟

لنعد مرة أخرى الى الأسرتين فى الأسطورة النموذجية فهى كما نعلم على مستوى التفسير التحليلى متماثلتان ،وعلى المستوى الأسطورى مختلفتان احداهما نبيلة والأخرى متواضعة ٠ ولكن بالنسبة للشخص التاريخى الذى تنسب اليه الاسطورة هناك مستوى ثالث هو الحقيقة ، فاحدى الأسرتين لا بد أن تكون حقيقة وهى الاسرة التى ولد فيها البطل حقا وأنشىء فى ظلها والاخرى خيالية اخترعتها

الاسطورة طبقا لدوافعها الخــاصة ، وكقاعدة فان الاسرة الاولى التى تعرض فيها الطفل المخطر هى فى كل الحالات المقارنة الأسرة الخيالية والأسرة الثانية التى تبنت الطفل وأنشأته هى الأسرة الحقيقية • اذا كانت لدينا الشجاعة لقبول هذا التفسير كحقيقة عامة تنطبق على أسطورة موسى أيضا رأينا فجأة طريقنا واضحا ، وهو أن موسى مصرى ربما من أصل نبيل ، تأخذه الأسطورة وتحوله الى يهودى وهذه هى النتيجة التى نصل اليها ، ولذلك أيضا يجرى تعديل الغرض من التعريض لخطر الماء ، فان نية الالقاء فى الماء يجب أن تتغير ، فبدلا من أن تكون وسيلة المتخلص من الطفل تصبح وسيلة لانقاذه ، وهذا بالضـــبط ما تقوله أسطورة موسى فان أسرته الفقيرة ألقته فى الماء لا للتخلص من خطره عليهـا ، وانمـــا لانقاذه هو شخصيا من خطر يتهدده •

والاختلاف بين أسطورة موسى وبين كل الأســـاطير الأخرى التى من نوعها يظهر أيضا فى جانب خاص منقصة حياة موسى اللاحقة فبينما نجد أنه فى كل الحالات الأخرى يرتفع البطل فوق بدايته المتواضعة وهو يتقدم فى الحياة فان بطولة موسى تبدأ بالنزول من مستواه الرفيع الىمستوى شعب اسرائيل •

ولكن بعد أن يصل فرويد الى هذه النتيجة عن طريق التحليل السيكلوجى لأسطورة موسى نجده يتشـــكك

فى صحة نتائجه على أساس أن ظروف نشأة وتطور مثل هذه الأساطير غامضة للغاية مما يجعل من العسير الوصول الى لب الحقيقة التاريخية عن طريقها لا سيما أنها تتعرض أيضـــا لتحويرات واضافات وتشـويهات كبيرة مع مضى القرون ، ولذلك فلا بد من البحث عن قرائن تاريخية فى الفترة التى عاش فيها موسى وتم خلالها خروج اليهود من مصر .

- ٤ -

عقبات :

اذا كان موسى مصريا حقـــا فان أول ما نجنيه من هذا الغرض لغز جديد عسير الحل ، فعندما يشرع شعب أو قبيلة فى القيام بمغامرة كبرى ، فالمفروض أن يفرض أحد أبنائها نفسه زعيما على شعبه أو أن يختاره شعبه القيام بهـــذا الدور · ولكن ترى ماذا كان يدفع مصريا بارزا ــ أميرا أو كاهنا أو مسئولا كبيرا ــ أن يضع نفسه عــلى رأس حشد من المهاجرين أدنى منه ثقافة وأن يغادر البلاد معهم ؟ فى الواقع ليس من السهل تفسير ذلك ، كما أن ما عرف عن المصريين من احتقارهم للأجانب يجعل هــذه العملية أكثر استحالة ، وأعتقد أن هذا السبب بالذات هو الذى جعل المؤرخين الذين اعترفوا بمصرية اسم موسى وبأنه تهذب بكل حكمة المصريين لا يطرحون الاحتمـــــال الواضح بأن موسى كان مصريا ·

هذه هى الصعوبة الأولى ، ولكن لا يلبث أن تليهـــا

صـــعوبة ثانية فـــلا ينبغى أن ننسى أن موسى لم يكن زعيما سياسيا لليهود المستقرين فى مصر فحسب ولكنــه كان أيضا المشرع والمعلم والرجل الذى اضطرهم الى اعتناق ديانة جديدة ما زالت حتى اليــوم تدعى الموسوية نسبة اليه ، ولكن هل يستطيع شـــخص واحد أن يخلق ديانة جديدة بمثــل هذه السهولة ؟ وعندما يرغب أحد فى أن يؤثر فى عقيدة الآخرين أليس من الطبيعى أن يحـــاول تحويلهم الى ديانته هو ؟ ان اليهــود فى مصر لم يكونوا بالتأكيد مجردين من نوع ما من الديانة ، واذا كان موسى الذى أعطاهم ديانة جديدة مصريا فلا يمكن أن نرفض الظن بأن هذه الديانة الجديدة هى الديانة المصرية .

غير أن هذا الاحتمال تقف دونه عقبة كئود : تلك هى التناقض الحاد بين الديانة اليهودية التى نعزى الى موسى والديانة المصرية ، فالأولى توحيدية الى أبعد الحدود ليس فيها سوى اله واحد ، فريد ، لا حد لقدرته ، ولا يمكن الاقتراب منه أو استجلاء ملامحـــه ، ولا ينبغى لأحد أن يتخيله على شكل ما أو حتى يهمس باسمه . أما الديانة المصرية ، فهى على الطرف المناقض ، مليئة بما لا يحصى من الآلهــة المختلفة الاهمية والأصول ، بعضها تجسيد لقوى طبيعية عظمى مثل السماء والارض والشـمس والقمر ، وبعضها رموز مجردة مثــل ما عث (العدل ـ الحقيقة ـ الفضيلة) ، وبعضها مخلوق غريب مثل القزم بس ، ومعظمهم على أية حال آلهــة محلية من الزمن الذى كانت

فيه البلاد مقسمة الى أقاليم عديدة ولذلك فهى تحتفظ بأشكالها الحيوانية كما لو كانت لم تتخلص بعد من أصولها الطوطميه القديمه ، ولا يمكن التفريق بينها بوضوح ولا يكاد يميز بينها سوى بعض الوظائف الخاصة التى يتمتع بها عدد منها ، فان تراتيل الثناء على هذه الالهه تذكر نفس الشيء عن كل منها او تمزج بينها على نحو لا يجعل أمامنا املا فى التفرقة بينها ، وأسماء الالهه يقترن بعضها ببعض الى درجة أن بعضها يفقد منزلته ويصبح مجرد نعت لاله آخرى ، وهكذا ففى ذروة الامبراطوريه الحديثه كان الاله الرئيسى فى طيبة يدعى آمون ـ رع ويجمع هذا المزيج بين امون اله طيبة ذى رأس الكبش ، ورع اله الشمس فى أون ذى رأس الصقر وكان السحر والتعاويذ والطقوس والشكليات تسيطر على عبادة هذه الآلهة كما تسيطر على الحياة اليومية للمصريين بوجه عام ٠

ان بعض أوجه الخلاف بين الديانة اليهودية والديانة المصرية ترجع الى التناقض من حيث المبدأ بين عقيدتى التوحيد والتعدد ، ولكن الخلاف الاكبر يبدو فى الفارق الفكرى بين الديانتين ، فالديانة المصرية أقرب ما تكون الى البدائية والديانة الموسوية تنطلق الى مرتفعات عليا من التجريد الرفيع ، وهذا ما يعطى الشعور بالتناقض بين الديانتين ، فعندما تستنكر ديانة ما بكل شدة أى نوع من أنواع السحر الذى يزدهر بغزارة فى الأخرى ، أو

عندما تصطدم رغبة المصرى العارمة فى نحت صور لآلهة من الطين أو الحجر أو المعدن ، والتى تملك المتاحف قدرا كبيرا منها الآن ، بطريقة دينية أخرى تحرم مجرد تخيل صورة الاله .. يمكن القول بأنهما يتناقضان تماما .

وثمة خلاف بارز آخر بين الديانتين الموسوية والمصرية هو الموقف من الحياة الاخرى ، فليس هناك شعب فى العالم القديم صنع ما صنعه المصريون لانكار الموت والاستعداد لما بعد الحياة ، وطبقا لذلك كان اله الابدية أوزيريس حاكم العالم الآخر أكثر الآلهة شعبية بين المصريين وأكثرها ارتفاعا عن المنازعات . أما الديانة اليهودية المبكرة فقد تخلت كلية عن فكرة الخلود ولا يرد فى أى مكان فيها احتمال الحياة بعد الموت ، وهذه ملحوظة فى غاية الأهمية وسنعود الى استخلاص دلالتها فيما بعد ، ولكن ما يمكن تسجيله هنا أن التجربة أثبتت فيما بعد أن الاعتقاد فى الحياة الاخرى يتفق تماما مع الديانة التوحيدية .

هذه هى بعض التناقضات الصارخة بين الديانتين والتى تقف عقبة فى وجه افتراض أن موسى المصرى أعطى ديانته لليهود .

- ٥ -

عقيدة أتون

هناك حقيقة غريبة فى تاريخ الديانة المصرية عرفت وقيمت مؤخرا تجعل من الممـكن القـول بأن الديانة التى أعطاها موسى للشعب اليهودى كانت ديانته فعلا ، وكانت ديانة مصرية حقا، ولكنها لم تكن الديانة المصرية التقليدية.

ففى عهد الاسرة الثامنة عشرة العظيمة عندما أصبحت مصر للمرة الاولى امبراطورية عالميـة اعتلى فرعـون شاب عرش البلاد حوالى عام ١٣٧٥ ق.م. كان فى بداية عهده يسمى نفسه امنحتب (الرابع) مثل والده ، ولكنه فيما بعد غير اسمه وما هو أكثر من اسمه ، هذا الملك قـام بارغام رعاياه على قبول ديانة جديدة تتعارض تماما مع تقاليدهم القديمة وعاداتهم المألوفة ، ديانة قائمة على التوحيد المطلق ، وهذه فيما نعلم أول محاولة من نوعها فى تاريخ البشرية ، وصحب هذه الديانة تعصب دينى لها لم يكن

معروفا من قبل فى ديانات العالم القديم ، ولكن حكم امنحتب استمر ١٧ عاما فحسب ، وفور وفاته عام ١٣٥٨ ق٠م٠ أمكن القضاء على الديانة الجديدة وازالة ذكرى الملك المارق ٠ وقد أمكننا معرفة الشىء القليل عن الملك وعقيدته من أطلال عاصمته الجديدة التى بناها وكرسها لالهه ، ومن النقوش الموجودة فى قبورها الحجرية ٠ والواقع أن أى شىء يمكن أن نعلمه عن هذا الانسان الفريد النابه يستحق أكبر الاهتمام ٠

اذا كان كل جديد له جذور فيما قبله كذلك فان أصل التوحيد المصرى يمكن تتبعه الى الوراء مسافة كبيرة بقدر من اليقين ٠ ففى مدرسة كهنة معبد الشمس فى أون (هليوبوليس) كانت ثمة ميول استمرت فترة من الوقت تطور فكرة وجود اله عالمى وتركز على جوانبه الاخلاقية ، وكانت « ماعث » الهة الحقيقة والنظام والعدالة ابنة لاله الشمس رع ٠ وفى عهد امنحتب الثالث والد وسلف الملك المصلح كانت عبادة اله الشمس فى ارتفاع ربما كحركة مضادة ومعارضة لنفوذ آمون فى طيبة الذى طبقت شهرته الآفاق ، وتم اكتشاف اسم قديم لاله الشمس هو آتون أو أتوم ، وفى ديانة آتون هذه وجد الملك الشاب ضالته فلم يكن بحاجة الى انشائها ولكنه قام بتطويرها ٠

كانت الظروف السياسية فى مصر فى ذلك الحين

تباشر نفوذا بارزا على الديانة المصرية ، فعن طريق السيف الظافر للفــاتح العظيم تحتمس الثــالث أصبحت مصر امبراطورية عالمية تمتد من النوبة جنوبا الى فسطين وسوريا وجزء من العراق شمالا ، هذه السيطرة الامبرياليــة فى السياسة انعكست على العقيدة فى صورة الدعوة للعالميـة والتوحيد ، فحيث أن نفوذ فرعون قـد أصبح يمتد الآن خارج مصر الى النوبة وسوريا كذلك فان الديانة نفسها يجب أن تتخلى عن حدودها القومية ، واله المصريين يجب أن يصبح الاله الوحيد صاحب السيادة المطلقــة على العــالم المعروف للمصريين ، والى جانب ذلك كان من الطبيعى مع اتساع الحدود أن تتعرض مصر لتأثيرات أجنبية فقد كانت بعض زوجات الملك ، مثلا ، أميرات من آسيا ، ومن المحتمل أن يكون هناك شعاع مباشر من التوحيد قد نفذ الى مصر من سوريا .

ولم يكن امنحتب لينكر بالمرة علاقته بعبادة الشمس فى أون ، ففى نشيدين لأتون عثر عليهما منقوشين على صخور المقابر ـ ومن المحتمل أن يكون واضعهما هو اخناتون نفسه ـ نجد مديحا للشمس كاله خالق وحافظ لكل المخلوقات داخل مصر وخارجها بحمية لا يعثر على ما يماثلها الا بعد ذلك بقرون فى المزامير المكرسة لتمجيد اله اليهود يهوه ، ولكن امنحتب لم يتوقف عند هذا الحد المدهش من المعرفـة العلمية بخصائص تأثير ضوء الشمس بل ذهب ، دون شك

الى أبعد من ذلك فعبد الشمس لا باعتبارها شيئا ماديا وانما كرمز لذات مقدسة تظهر طاقتها فى أشعة قرص الشمس ·

يقول برستيد فى كتابه « تاريخ مصر » « مهما كان الأصل الهليوبوليسى للديانة الرسمية الجديدة واضحا الا انها لم تكن مجرد عبادة شمس فان الكلمة «آتون» استخدمت فى مكان الكلمة القديمة التى تعنى « الاله » وأصبح الاله مميزا تمييزا واضحا عن الشمس المادية · ويقول برستيد أيضا فى كتابه « فجر الضمير » « من الواضح ان ما كان يقدسه الملك هو القوة التى بمقتضاها تجعل الشمس نفسها محسوسة فى الارض » ، وكذلك يعبر أدولف ارمان عن نفس المعنى فى كتـــابه « الديانة المصرية » فيقول « هناك كلمات يقصد بها التعبير بشكل مجرد عن حقيقة ان النجم نفسه ليس محل العبادة بل الذات الالهية التى تتجلى فيه »

ولكننا نظلم الملك اذا رأيناه فحسب مؤمنا وحاميـــا لديانة آتون التى كانت موجودة فعلا من قبل بل ان نشاطه كان أكثر حيوية ، فقد أضاف شيئا جديدا بحول نظرية الاله العالمى الى توحيد ، ألا وهو خاصية التفرد ، ففى احدى أناشيده لالهه يقول « انك الاله الأحد ·· ولا اله غيرك » ·

ولكن من الخطأ افتراض ان الديانة الجديدة قفزت الى الحياة جاهزة ومهيأة تماما كما انبثقت أثينا من جبهة زيوس فان كل شىء يدل على أنه خلال حكم امنحتب الرابع أخذت الديانة الجديدة تتطور لتكون أكثر وضوحا وصلابة وتعصبا

ومن المحتمل أن يكون هذا التطور قد حدث تحت تأثير المعارضة العنيفة من كهنة آمون اله طيبة الذى رفع رأسه ضد الاتجاهات الجديدة للملك ، وفى العام السادس من حكم امنحتب الرابع وصل هذا العداء الى درجة جعلت الملك يغير اسمه الذى يتكون فى أحد مقطعيه من اسم أمون ، وسمى نفسه اخناتون ومعناه « الله راض » (قارن هذا المعنى مع الكلمة الانجليزية Godfrey والكلمة الألمانية Gotthold) ولم يتخلص من اسم هذا الاله المكروه فى اسمه فحسب وانما قام أيضا بمحوه من جميع النقوش أينما وجده حتى لو كان في اسم أبيه أمنحتب الثالث ، وبمجرد أن غير اسمه الى أخناتون غادر طيبة التى كانت تحت هيمنة آمون ، وبنى عاصمة جديدة أدنى النهر دعاها اخيتاتون أى (الأفق أتون) والتى تعرف اطلالها الآن بتل العمارنة ، وفى هذه الاطلال عثر عام ١٨٨٧ على أرشيف مكاتبات الملوك المصريين مع أصدقائهم وتابعيهم فى آسيا ، وهى مراسلات تعتبر فى غاية الأهمية بالنسبة لمعرفتنا بالتاريخ .

ولكن الاضطهاد الذى وجهه الملك بصفة أساسية ضد آمون لم يقتصر على هذا الاله فحسب وانما أمر اخناتون باغلاق معابد جميع الآلهة فى كل أنحاء الامبراطورية ، ومنع اقامة الطقوس الدينية ، ومصادرة ممتلكات المعابد ، بل ذهبت الحمية بالملك الى درجة أنه أمر باجراء فحص لكل ما يعثر عليه من نقوش فى الآثار القديمة لمسح كلمة الآلهة أينما وجدت فى صيغة الجمع ، ولذلك فليس مما يثير الدهشة

أن تؤدى هذه الاوامر الى رد فعل انتقامى تعصبى بين الكهنة المضطهدين والشعب الساخط وهو رد فعل استطاع ان يجد منطلقا بعد وفاة الملك التى كانت فيما يبدو نتيجة مباشرة للضغط أو التآمر ٠

وعلى أية حال فان ديانة آتون لم تعتنق بين الشعب وانما يبدو انها كانت متصورة على دائرة محدودة حول شخص الملك ٠ وأحوال الدولة بعد نهاية اخناتون يكتنفها الغموض فنحن نعرف بعض خلفائه من أسرته مروا كشخصيات معتمة قصيرة الأمد ، فقد أرغم توت عنخ آمون على العودة الى طيبة واعادة اسم آمون الى اسمه بدلا من الاله آتون ، ثم تلت ذلك فترة من الفوضى حتى تمكن القائد حورمحب من اعتلاء العرش واعادة النظام عام ١٣٥٠ ق٠م٠ وانقضت الاسرة الثامنة عشرة العظيمة ، وفى نفس الوقت فقدت مصر ممتلكاتها فى النوبة وآسيا ، وخلال فترة الخواء الحزينة هذه أمكن اعادة ديانة مصر القديمة الى سابق عهدها ، وانتهت ديانة آتون ، وتركت عاصمة اخناتون مسلوبة ومدمرة ولعنت ذكراه كمجرم أثيم ٠

وسوف يكون من المفيد لبحثنا اذا عرفنا الآن بعض الخصائص السلبية لديانة آتون، ففى المحل الاول استبعدت هذه الديانة جميع ألوان السحر والخرافات والشعوذة،يقول آرثر ويجال فى كتابه «حياة اخناتون وعصره» «ان اخناتون ألقى الى النار بشتى كائنات العالم السحرى من جان وعفاريت

ومردة وأرواح وأنصاف آلهة ، وحتى أوزيريس نفسه بكل بلاطه ألقى بهم فى اللهب وتحولوا الى رماد » ٠

وثانيا هناك الطريقة التى كان يمثل بها اله الشمس، فلم يعد ذلك يتم كما فى الازمان السابقة بواسطة هرم صغير وصقر وانما ـ وهذا أمر معقول ـ عن طريق قرص مستدير تنبثق منه أشعة تنتهى بأيد بشرية ، وبالرغم من كل الحب الذى تمتع به الفن فى عصر العمارنة الا أنه لم يعثر على أى تجسيد شخصى لاله الشمس آتون ، ويمكننا أن نقول فى ثقة ولن يعثر على مثل ذلك ٠

يقول ويجال « لم يكن أخناتون يسمح بأى تصوير لآتون وكان يقول أن الاله الحق لا شكل له وظل متشبثا بهذا الاعتقاد طوال حياته » ٠

والأخيرا هناك صمت تام فيمـــا يتعلق باله الابدية أوزيريس ومملكة الموتى فلميعثر على ذكر لذلك فى أى نشيد أو نقش على قبور العمارنة رغم أن الاله أوزيريس كان أكثر الآلهة قربا الى قلوب المصريين ٠

وهكذا يبدو واضحا مدى التناقض بين ديانة آتــون الجديدة والديانة التقليدية الشعبية التى ألفها المصريون

- ٦ -

موسى يهبط اليهود

يمكننا الآن أن نخاطر بالوصول الى هذه النتيجة :
اذا كان موسى مصريا ، واذا كان قد نقل الى اليهود ديانته الخاصة فلا بد أنها كانت تلك التى اعتنقها أخناتون أى ديانة آتون ·

لقد قمنا من قبل بمقارنة الديانة اليهودية بالديانة المصرية التقليدية ولاحظنا مدى الاختلاف بينهما · والآن سوف نقارن الديانة اليهودية بديانة آتون لنرى الى أى حد هما متماثلتان فى الأصل ، وهذه ليست بالمهمة السهلة فنحن لا نعرف عن ديانة آتون ما فيه الكفاية نتيجة للروح الانتقامية لكهنة آمون كما أن معرفتنا بالديانة الموسوية جاءتنا فى شكلها النهائى عن طريق كهنة اليهود بعد المنفى أى بعد أن جاء موسى برسالته بحوالى ثمانمائة عام ، ولكن اذا استطعنا ــ رغم هذه المادة غير المشجعة ــ أن نعثر على

بعض الدلائل التى تخدم فرضنا فلا شك أنها تكون أدلة بالغة الأهمية ٠

هناك طريق قصير للتدليل على نظرتنا فى أن الديانة الموسوية ليست شيئا سوى عقيدة آتون وذلك بملاحظة التشابه الحرفى فى اسم الاله فى العقيدتين ، ولكننى أخشى أن يقال لى ان هذا الطريق غير عملى ٠ ان العقيدة اليهودية كما هو معروف جيدا تقول : Schema, Jisroel Adonai Elohenu Adonai Echod واذا كان التشابه بين الكلمة المصرية (آتون) والكلمة العبرية (أدوناى) والاسم المقدس بالسريانية (أدونيس) ليس مجرد صدفة وانما نتيجة وحدة أصلية فى اللغة والمعنى ، فعندئذ يمكن ترجمة الصيغة اليهودية السابقة كما يلى «اسمعى يااسرائيل ان الهنا آتون (أدوناى) اله أحد » ٠ ولكن على أية حال قد يكون من الافضل عدم أخذ الامور بهذه البساطة ٠ ان أوجه التشابه وكذلك وجوه الاختلاف بين الديانتين يمكن ابصارها بسهولة ولكنها لا تنورنا كثيرا ، فقد يقال ان الاثنتين شكلان من التوحيد المطلق والى هذه الطبيعة الأساسية يجب أن تعزى أوجه التشابه بين العقيدتين ،وفيما يتعلق بوجوه الاختلاف نلاحظ أن التوحيد اليهودى فى بعض جوانبه أكثر تشددا من توحيد أخناتون ، مثلا فيما يتعلق بتحريم أى تمثيل تصويرى للاله ـ ولكن الخلاف الاساسى هو أن الديانة اليهودية تتخلى نهائيا عن عبادة الشمس فى حين أن ديانة آتون لا زالت ملتصقة بها ٠

عندما كنا نقارن بين الديانة اليهودية والديانة المصرية التقليدية لاحظنا انه الى جانب الخلاف المبدئي بينهما كانتا تختلفان أيضا من حيث الموقف من العالم الآخر ، هـــذا الاختلاف يبدو هناك ما يفسره اذا وضعنا في مقارنتنا هذه ديانة آتون مكان الديانة اليهودية ، فاخناتون كما نعرف قام بتطوير عقيدته على نحو يناقض عن قصد الديانة التقليدية الشعبية ، ولذلك فاننا ندهش ـ ولنا الحق ـ عندما نرى ان الديانة اليهودية لا تتحدث أيضا بأى شيء عن الحياة فيما وراء القبر مع أن نظرية العالم الآخر تتفق كمـــا عرفت البشرية فيما بعد مع التوحيد المطلق • هذه الدهشـــة تختفى اذا اعتبرنا أن هذا الجانب قد انتقل الى الديانـة اليهودية من ديانة آتون ، وقد أغفل اخناتون العالم الآخر لأن ذلك كان ضرورة أملتها عليه محاربته للديانة الشعبية التقليـدية حيث يحتل اله الابدية أوزيريس مكانا رئيسيا وربما كان يلعب دورا أنشط من أى اله آخر • ان اتفـاق الديانة اليهودية مع ديانة آتون فى هذه النقطة الهامة هى أول حجة قوية فى جانبنا ، ولكننا سوف نرى أنها ليست الحجة الوحيدة •

ان موسى لم يعط اليهود ديانة جديدة فحسب وانما أعطاهم أيضا عادة الختان ، وهذه لها أهمية حاسمة بالنسبة لمشكلتنا بالرغم من أن قصة الكتاب المقدس فى هذا الشأن تبدو متناقضة مع ما نريد أن نذهب اليه ، فمن ناحية ترجع التوراة بهذه العادة الى عهد الآباء الأوائل كعلامة على ميثاق

عقد بين الرب وابراهيم ، ومن ناحيـــة أخرى يذكر النص التوراتى فى عبارة غامضة ان الرب غضب على موسى لانـه أهمل هذه العادة المقدسة وكاد الرب أن يذبح موسى عقابا له على ذلك ، ولكن زوجة موسى وهى امرأة من مدين انقذت زوجها من غضب الرب بأن سارعت باجراء هذه الجراحـة له . ويرى فرويد ان كل هذه تشويهات للحقيقة ينبغى أن لا تجرنا بعيدا عن الصواب وسوف نبحث فيما بعد الدوافع وراء ذلك ، ولكن الحقيقة تبدو رغم أى شيء واضحة لا شبهه فيها وهى أن منبع عادة الختان مصر ، فان هيرودوت الملقب بأبى التاريخ يخبرنا أن عادة الختان قد مورست منذ زمن طويل فى مصر . وثبتت صحة هذا القول بفحص موميـات المصريين القدماء بل حتى من الرسوم الموجودة على جدران المقابر ، وبقدر ما نعلم لم يمارس أى شعب آخر شرقى البحر المتوسط هذه العادة ويمكن أن نؤكد فى ثقة ان الساميين والبابليين والسومريين لم يزاولوا الختان وكذلك فان تاريخ التوراة يذكر نفس الشيء عن سكان كنعان كما يبدو ذلك فى قصة المغامرة بين ابنة يعقوب وأمير ششيم ، واحتمـال أن يكون اليهود فى مصر قد اكتسبوا عادة الختان بأى طريقة أخرى غير مقترنة بحصولهم على الديانة الجديدة احتمال مرفوض لا يمكن الدفاع عنه ، والآن لنضع فى ذهننا أن الختان كان يمارسه الشعب فى مصر كعادة عامة ولنسـلم مؤقتا بالفرض العادى الذى يرى موسى يهوديا كان يريد تحرير مواطنيه من نير السيد المصرى وقيادتهـم الى خارج

البلاد لتمكينهم من تحقيق ذاتهم على نحو مستقل ـ وهو عمل أنجزه فعلا ـ اذا كان الامر كذلك فأى معنى يمكن أن يكون فى قيام موسى (اليهودى) بارغام شعبه على اتباع عادة ثقيلة تحولهم الى مصريين وتبقى لديهم ذكرى مصر حية فى أذهانهم دائما فى حين أن ما يهدف اليه هو عكس ذلك تماما أو بالتحديد أن يجعل شعبه غريبا عن بلاد العبودية ويقطع كل صلة بها ؟ كلا ٠٠ ان الحقيقة التى بدأنا منها والغرض الذى أضفناه اليها لا يتفقان على الاطلاق بحيث يمكن أن نغامر بالوصول الى النتيجة التالية : اذا كان موسى لم يعط اليهود ديانة جديدة فحسب وانما أعطاهم قانون الختان كذلك فانه ليس يهوديا ، بل هو مصرى ، وعندئذ من المحتمل أن تكون الديانة الموسوية ديانة مصرية أو أنها بالذات ـ بسبب تناقضها مع الديانة الشعبية ـ ديانة آتون التى تتفق معها الديانة اليهودية فى بعض النقط الهامة ٠

والآن نتجه الى نقطة أخرى ، فكما لاحظت من قبل أن النظرية التى أسوقها بأن موسى لم يكن يهوديا بل هو مصرى تخلق لغزا جديدا ، فان ما فعله يمكن فهمه بسهولة اذا كان يهوديا ولكنه يصبح أمرا غير مفهوم اذا صدر عن مصرى ، فما الذى يدفع زعيما مصريا الى رفض وطنه والخروج منه على رأس أبناء شعب آخر يعانى الاحتقار فى مصر ؟ غير أننا اذا وضعنا موسى فى عهد أخناتون وربطناه بهذا الفرعون فان اللغز لا يبقى بدون حل ، ونجد الدافع المحتمل الذى حرك

موسى يقدم نفسه بل ويجيب على تساؤلاتنا الأخرى ٠

لنفترض الآن أن موسى كان رجلا نبيلا وشهيرا ـ وربما كان فى الواقع من أعضاء البيت الملكى كما تقول الاسطورة ـ فلابد أنه كان مدركا لما يتمتع به من طموح وحيوية وقدرات شخصية كبيرة ، وربما يكون قد رأى نفسه فى المستقبل المبهم زعيما لشعبه ، حاكما للامبراطورية ، ولما كان على صلة وثيقة بالفرعون الثائر لذلك فانه اقتنع بديانته الجديدة وفهم مبادئها الأساسية فهما تاما وجعلها ديانته الخاصة ، ولكن عندما مات الملك وأعقب ذلك رد الفعل المضاد رأى موسى كل آماله وتوقعاته تتحطم ، ولما كان لايريد أن يجحد معتقداته الجديدة ، وهى عزيزة جدا على نفسه ، لذلك لم تعد مصر بالوطن الذى يمكن أن يعطيه شيئا ، بل هو فقد وطنه فى الواقع ، وفى ساعة الشدة هذه جاءه الحل المنشود ، ألم يجعل اخناتون الحاكم نفسه غريبا أيضا على شعبه وترك امبراطوريته العالمية تنهار ؟ اذن أى غرابة يمكن أن يثيرها اتخاذ موسى نفس الموقف ؟ ان طبيعة موسى النشيطة لابد أن تكون قد اقنعته بفكرة تأسيس امبراطورية جديدة ٠ والعثور على شعب جديد يستطيع أن يمنحه الزعامة ويمنحه هو الديانة التى نبذتها مصر، كان ذلك دون ريب محاولة بطولية من موسى للصراع ضد قدره ولأن يجد تعويضا عن الخسائر التى كابدها خلال مأساة أخناتون ، ومن المحتمل أنه كان فى ذلك الوقت حاكما على اقليم جوشن على الحدود الشرقية والذى استقرت فيه ربما منذ زمن

الهكسوس بعض القبائل السامية ٠٠ وهذه القبائل هى التى اختارها لتكون شعبه الجديد ٠٠ فياله من قرار تاريخى!

وهنا يتوقف فرويد قليلا ليخمن مهنة موسى ، فيقول انه اذا كان من كبار المسئولين أمكننا أن نفهم انه كان مهيئا للقيام بدور الزعيم الذى حصل عليه بين اليهود، واذا كان كاهنا أمكننا أن نفهم استعداده لابلاغ شعبه بديانته الجديدة ، ويبدو أن موسى كان الرجلين معا فالأمير ذو الأصل الملكى كان يمكنه بسهولة أن يجمع بين المهنتين : الحاكم والكاهن ٠ أما عند المؤرخ اليهودى القديم يوسيفوس ، الذى كان يعرف فيما يبدو الكثير من تراث اليهود غير المكتوب ، فان موسى يظهر كقائد عسكرى مصرى قاد حملة مظفرة فى اثيوبيا ٠

وعلى أية حال فقد قام موسى بانشاء علاقات معالقبائل السامية فى أرض جوشن ، ونصب نفسه زعيما عليها ٠ وقادها الى الخروج « بيد قوية » كما تقول التوراة ، ويمكننا ـ خلافا للتراث التوراتى ـ افتراض أن الخروج تم بسلام وبدون مطاردة ، فان سلطة موسى جعلت ذلك ممكنا ، ولم تكن هناك حينئذ قوة مركزية يمكنها أن تمنعه ٠

ويرى فرويد أن الخروج من مصر حدث فى الفترة بين ١٣٥٨ و ١٣٥٠ ق٠م٠ أى خلال فترة السنوات الثمانى التى تلت وفاة أخناتون وسبقت استيلاء القائد حورمحب على السلطة (وذلك يجعل الخروج يقع مبكرا بمقدار قرن عما

يذهب اليه معظم المؤرخين الذين يجعلونه أثناء حكم الاسرة التاسعة عشرة فى عهد منفتاح) • أما هدف الرحيل فكان أرض كنعان ، وفى هذه الفترة كانت سيطرة مصر قد انهارت فى المنطقة واندفعت عشائر من الآراميين المحبين للقتـــال الى أرض كنعان تجتاح وتسلب ما تجده فى طريقها ،وهناك حصلت هذه العشائر على أرض جديدة • ونحن نعرف هذه العشائر المحاربة عن طريق الخطابات التى عثر عليهـــا عام ١٨٨٧ فى أرشيف المدينة المخربة تل العمارنة وكان اسمها « عابيرو » وقد انتقل هذا الاسم ـ ولا أحد يعرف كيف ـ الى اليهود القادمين من مصر بعد ذلك والذين لم يكن من الممكن الاشارة اليهم فى خطابات تل العمارنة فأصـــــبحوا يســـــمون بالعبريين بعد أن امتزجوا بالقبائل التى كانت تربطهم بها صلات قرابة قوية والتى كانت قد استقرت هى أيضا فى كنعان بجنوب فلسطين •

ان الدافع الذى حددناه للخروج قد يفسر أيضا نظام الختان ، فنحن نعرف على أى نحو يتصرف البشر ـ شعوبا وأفرادا ـ تجاه تلك العادة القديمة والتى لا تكاد تكونمفهومة فى حد ذاتها ، فهؤلاء الذين لا يمارسون هذه العادة يعتبرونها عادة شاذة للغاية بل يجدونها بغيضة ، ولكن الذين يمارسون الختان فخورون بهذه العادة ويشعرون أنهم أسمى وأكثر نبلا وينظرون باستعلاء واحتقار للآخرين الذين يبدون فى أعينهم غير نظيفين ، ومن المعقول أن موسى نفسه باعتباره مصريا مختتنا كان يشعر بنفس هذا الشعور نحو الآخرين،

ولابد أن يكون موسى قد شعر بأن اليهود الذين يغادر معهم وطنه ينبغى أن يكونوا بديلا حسنا للمصريين الذين تركهم وراءه ، وعلى أى حال ينبغى ألا يكونوا أقل شأنا منهم ، فهو يرغب أن يجعلهم « أمة مقدسة » ـ كما يذكر ذلك صراحة نص التوراة ـ وكعلامة لتدشينهم كأمة مقدسة أدخل اليهم هذه العادة التى تجعلهم على الاقل مساوين للمصريين ، وأكثر من ذلك ، فلا بد أنه كان يرحب بأن تساهم هذه العادة فى عزلهم ومنعهم من الذوبان مع الشعوب الاجنبية الأخرى التى سوف يقابلونها فى تجوالهم ، تماما مثلما ساهمت هذه العادة فى منع اختلاط المصريين بالأجانب ٠

وهنا يستطرد فرويد فى ملاحظة هامشية فى الحديث عن عادة الختان لدى المصريين وكيف أثرت فى نفسيتهم فيقول نقلا عن هيرودوت الذى زار مصر حوالى عام ٤٥٠ ق٠م٠ « ان المصريين من جميع الوجوه أكثر تقوى من الشعوب الاخرى، وهم أيضا متميزون عن الشعوب الاخرى فى كثير من عاداتهم مثل عادة الختان التى انتهجوها قبل غيرهم لأسباب تتعلق بالنظافة وكذلك فانهم لا يأكلون لحم الخنزير لأن ست عندما عقر حورس كان متخفيا فى هيئة خنزير أسود ،وأخيرا فانهم يكرمون البقرة فلا يأكلونها مطلقا ولا يضحون بها كقربان للآلهة لأنهم بذلك يسيئون الى ايزيس ذات قرنى البقرة ، ولذلك فلا يمكن لرجل مصرى أو امرأة مصرية تقبيل اغريقى أو استخدام سكينه أو سفوده (سيخ) أو آنية طعامه أو الأكل من لحم ثور غير نظيف أى ذبح بسكين

أغريقى ، وهم متكبرون ضيقو الأفق يعتبرون الشعوب الأخرى غير نظيفة ولا قريبة الى الالهة مثلهم » . ويلاحظ ورويد أن مثل هذا الموقف اتخذه اليهود أيضا فى تاريخهم ازاء الشعوب لأخرى ، ثم يتساءل : ترى ما الذى أعطى الشاعر اليهودى هاينى فى القرن التاسع عشر فكرةالشكوى من ديانته باعتبارها تشبه « وباء انتشر من وادى النيل تحمل معتقدات مريضة من المصريين القدماء » ؟

وعلى أية حال فان التراث اليهودى تصرف فيما بعد كما لو كانت تؤرقه فكرة عزو الفضل للمصريين ، فاناليهود اذا اعترفوا بأن عادة الختان عادة مصرية أدخلها موسى فانهم بذلك يعترفون تقريبا بأن الديانة التى أعطاها لهم موسى هى أيضا ديانة مصرية ، ولما كان لدى اليهود أسباب قوية تدعوهم الى انكار ذلك فقد كان عليهم أيضا أن يحجبوا حقيقة عادة الختان .

- ٧ -
أساطير التوراة :

عند هذا الحد يشعر فرويد انه ذهب بعيدا فى بناء نظريته الجديدة ويتوقع بالتالى ان ينهال عليه التوبيخ ، كيف لا وقد انتزع موسى من يهوديته وجعله مصريا دفعته الحالة السياسية فى عصر أخناتون الى اتخاذ قراره بحماية الشعب اليهودى فمنحهم ديانة آتون أو بمعنى آخر فرضها عليهم فى الوقت الذى كانت فيه قد ألغيت من مصر ذاتها . ولكن فرويد لا يلبث أن يطرح مخاوفه جانبا لأنه كما يقول حاول صياغة أدلته بدرجة كبيرة من التيقن نظرا لعدم كفاية المادة التاريخية فى حد ذاتها ، ولذلك فهو يشعر بأن مثل هذا التوبيخ ليس له ما يبرره لا سيما أنه وضع عنصر التشكيك فى مقدمة البحث وليس هناك مايدعو الى تكراره كل حين وآخر .

هذا الموقف من فرويد يدل على مدى تحرجه وخوفه

ازاء مشاعر بنى جلدته من اليهود المعاصرين ، ويدل فى نفس الوقت على اقتناعه بقوة حججه ، وبأنه يقدم حقيقة لاينبغى أن تحجب .

ولكن فرويد لا يلبث أن يترك كل شك أو تخوف جانبا ويمضى فى توغله التاريخى ليصل الى مزيد من النتائج الشائقة بل الأكثر غرابة ..

يقول فرويد ان لب نظريته ، وهو اعتماد التوحيد اليهودى على فترة التوحيد فى التاريخ المصرى ، قد حدسه وأشار اليه كثير من الباحثين وليس هناك ما يدعو الى ذكر أسمائهم طالما أنهم جميعا لم يستطيعوا أن يقولوا كيف حدث هذا التأثير ، ولكن حتى اذا كان هذا التأثير قد حدث نتيجة لشخصية موسى كفرد فان علينا رغم ذلك أن نزن جميع الاحتمالات الاخرى غير التى أشير اليها مقدما أى التى تقول ان موسى عاش فى عصر أخناتون بالذات وكانت دوافعه سياسية الى هذا الحد ، اذ ربما يكون موسى قد عاش فى عصر لاحق ومع ذلك لا يضعف هذا من احتمال كونه مصريا فلا يمكن أن نفترض أن الغاء ديانة آتون رسميا قد وضع حدا نهائيا لاتجاه التوحيد فى مصر ، فان مدرسة كهنة أون ـ التى نبتت فيها فكرة التوحيد ـ استطاعت أن تتحمل الكارثة ، ولا بد أنها قد أنشأت أجيالا كاملة بعد أخناتون فى دائرة فكرها الدينى ، وكون موسى قد اعتنق هذا المذهب أمرا مفهوما تماما حتى لو لم يكن قد عاش فى زمن أخناتون

وخضع لنفوذه الشخصى أى حتى لو كان مجرد نصير أو عضو فى مدرسة أون ٠ فهذا الافتراض لا يفعل أكثر من تأجيل زمن الخروج بعض الوقت ويجعله أقرب الى الزمن المفترض عادة وهو القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، ويكون علينا حينئذ أن نتخلى عن الدوافع الداخلية التى دفعت موسى الى القيام بمهمته ، وأن نستغنى عن فكرة أن عملية الخروج قد وجدت ما يسهلها فى حالة الفوضى التى عمت مصر ، ومع ذلك فعلينا أن نذكر من ناحية أخرى أن ملوك الاسرة التاسعة عشرة الذين أعقبوا اخناتون حكموا البلاد بيد من حديد ، وعلى ذلك تكون جميع الظروف الداخلية والخارجية تحبذ اقتران خروج اليهود من مصر بالفترة التى أعقبت مباشرة وفاة الملك المارق ٠

ان اليهود لديهم مأثورات كثيرة خارج التوراة تضم كمية ضخمة من الاساطير والخرافات التى نسجت عبر القرون حول الشخصية العملاقة لزعيمهم الأول ومؤسس ديانتهم ، وقد أدت هذه الاساطير والخرافات الى تقديس شخصية موسى وجعلها أكثر غموضا ، ونستطيع أن نجد بعض شذرات التراث الصحيح التى لم تجد لنفسها مكانا فى الاسفار الخمسة مبعثرة بين تلك المواد ٠ احدى هذه الأساطير تصف بطريقة جذابة كيف أن موسى كان طموحا منذ طفولته ، اذ عندما حمله فرعون بين ذراعيه ورفعه مدللا الى أعلى جذب الطفل ذو السنوات الثلاث التاج من فوق رأس الملك ووضعه على رأسه ، وانزعج فرعون بهذا الفأل واهتم

باستشارة حكمائه ، ثم نسمع مرة أخرى عن معارك ظافرة خاضها موسى كضابط مصرى فى أثيوبيا ، ونسمع كذلك أنه هرب من البلاد خوفا من حزب من البلاط أو حتى من فرعون نفسه ، وقصة التوراة نفسها تضفى على موسى بعض الملامح النفسية التى يميل الانسان الى تصديقها ، فهى تصفه بأنه غضوب حاد الطبع ، يبدو ذلك مثلا عندما أخذته ســـورة الغضب فقتل الملاحظ المصرى القاسى الذى كان يسىء معاملة عامل يهودى ، أو عندما فاض به الاستياء والتبرم من عصيان شعبه فحطم الألواح التى تلقاها فوق جبل سيناء ، وحقيقة نجد أن الله نفسه يعاقبه فى النهاية لعمل أقدم عليه يتسم بعدم الصبر ولكننا لا نعرف ما هو هذا العمل ، وحيث أن هذه القصة لا يسلط عليها الضوء الكافى فمن المحتمل جدا أن تمثل حقيقة تاريخية يراد اخفاؤها وسوف نعود الى ذلك فيما بعد ، ولا نستطيع كذلك أن نرفض احتمال أن تكون كثير من السمات التى نسبها اليهود فى تصورهم المبكر لله عندما جعلوه غيورا صلبا قاسيا قد اشتقوها أساسا من ذكرياتهم عن موسى الذى كان يبدو أمامهم كاله ٠

وهناك سمة أخرى تعزى الى موسى تستحق منا اهتماما خاصا ، اذ قيل ان موسى كان « بطيئا فى الكلام » بمعنى أنه كان يعانى من التلعثم أو العجز عن النطق ، ولذلك كان عليه ان يلتمس مساعدة هارون (الذى يوصف بأنه أخوه) فى مناقشته المفترضة مع فرعون ٠ وهذه أيضا يمكن أن تكون حقيقة تاريخية وأن تخدم كاضافة مفيدة فى توضيح

صورة هذا الرجل العظيم ، ويمكن أن تكون لها دلالة أخرى أكثر أهمية ، فان القصة قد تدل ـ اذا أخذنا فى اعتبارنا عامل التشويه والتحوير ـ على حقيقة أن موسى كان يتكلم لغة أخرى ، ولم يكن قادرا على التفاهم مع شعبه الجـــديد من الساميين بدون مساعدة مترجم على الأقل فى بداية عهده بهم ، وفى هذا دليل آخر على نظرية أن موسى كان مصريا٠

يبدو لى الآن كما لو كان تيار الفكر قد وصل الى نهايته فيما يتعلق بالوقت الحاضر على الأقل ، فلايمكن أن نستقرىء هذه اللحظة شيئا جديدا من افتراض أن موسى كان مصريا سواء صح هذا الفرض أم لا ، وأى مؤرخ لايمكنه أن يعتبر قصة التوراة عن موسى والخروج أكثر من أسطورة دينيـة تسجل تراثا انحدر من زمن سحيق على نحو يخدم ميولها ما الذى كان عليه هذا التراث أصلا ؟ نحن لا نعرف ! أمـا عن ماهية تلك الميول التى يمكن أن تشوه المادة التاريخية وتخضعها لأهوائها فهذا ما نحاول أن نخمنه ، ولكن جهلنا بالأحداث التاريخية يبقينا فى الظلام ٠ وعلى أية حال فان نظريتنا لا تترك مجالا كبيرا لصـــــحة الكثير من جـوانب الاسطورة التى وردت فى التوراة مثل الطواعين العشرة وعبور البحر الاحمر وتلقى الرسالة على جبل سيناء ، فكل هــذه الأشياء لا ينبغى أن تجعلنا نضل طريقنا ، ويمكننــــا أن لا نكترث بها ، ولكن ينبغى أن نكترث ونشــعر بالانزعاج اذا وجدنا أنفسنا على طرف نقيض مع الابحاث التاريخية العلمية فى عصرنا الحاضر ٠

لقد تتبع المؤرخون المحدثون ، ويمثلهم أصدق تمثيل ادوارد ماير Eduard Meyer نص التوراة الى نقطة حاسمة فسلموا بأن القبائل اليهودية التى أصبحت فيما بعد شعب اسرائيل قبلت فى وقت معين ديانة جديدة ، ولكن هذا الحدث لم يتم فى مصر أو عند سفح جبل فى شبه جزيرة سيناء ولكن فى مكان يسمى مريبات ـ قادش Meribat-Quades وهى واحة ظليلة تكثر فيها الغدران والآبار وتقع جنوبى فلسطين بين الطرف الشرقى لشبهجزيرة سيناء والطرف الغربى لشبه جزيرة العرب . هناك بدأ اليهود يعبدون الاله يهوه Jahve ومن المحتمل أن يكون هذا التأثير جاءهم من قبيلة مدين العربية التى تقيم بالقرب من هذا المكان ، والمعتقد أن قبائل مجاورة أخرى كانت من أتباع هذا الاله .

كان الاله يهوه بالتأكيد اله البراكين (١) ونحن نعرف أن مصر ليست بها براكين وكذلك جبال سيناء لم تكن مطلقا جبالا بركانية ، ولكن البراكين التى ربما ظلت نشطة الى فترة متأخرة توجد على طول الحد الغربى لشبه الجزيرة العربية ، ولا بد أن أحد هذه الجبال البركانية هو جبل حوريب Horeb الذى كان من المعتقد أنه مقر يهوه .

---

(١) أنظر مثلا كيف تجلى هذا الاله لموسى فوق جبل حوريب : «وظهر ملاك الرب بلهب نار من وسط عليقة ، واذا العليقة تتوقد بالنار ، والعليقة لم تكن تحترق» .

خروج : ٣ : ٢

وبالرغم من كل التحويرات التى عاناها نص التوراة يمكننا ـ والفضل فى ذلك لمائير ـ أن نتصور الطبيعة الأصلية لهذا الاله : فقد كان شيطانا مهلكا محبا للدماء يجوب الليل ويتجنب ضوء النهار .

وكان الوسيط بين الشعب والرب عند مولد هذه الديانة الجديدة حسب قصة التوراة يدعى موسى وهو زوج ابنة كاهن مدين الذى يدعى يثرون Jethro وكان يرعى قطعانه عندما تلقى الهاتف المقدس، وقد اجتمع به يثرون فيما بعد فى قادش وأعطاه بعض الوصايا .

هذا الجانب فى حياة موسى حسب قصة التوراة يستوقف نظر فرويد فهو يرى أن صورة موسى فى مدين لا تتمشى مطلقا مع صورة موسى قائد الخروج من مصر، فهو فى مدين يفقد كل الخصائص التى كان يتمتع بها فى شبابه فان موسى فى مدين لا يصبح النبيل المصرى حفيد فرعون ، وانما هو راع يتزوج ابنة كاهن مدين ويكشف له الاله يهوه رب البراكين عن نفسه(١) ، وفى قصة الطواعين العشرة التى أصابت مصر عندما رفض فرعون السماح بخروج بنى اسرائيل مع موسى نجد أن جميع الصلات القديمة لموسى بمصر والبيت الملكى لا تذكر مطلقا فى حين انه كان من الممكن

---

(١) يلاحظ أن القصة الدينية تسير هكذا : مولد موسى ونشأته فى مصر ـ هربه من مصر بعد قتله المصرى ـ اقامته فى مدين ـ تلقيه الرسالة وتكليفه بالعودة الى مصر لاخراج بنى اسرائيل ـ حواره مع فرعون وضرب مصر بالطواعين العشرة ـ الخروج .

استغلالها بطريقة فعالة جدا ، وكذلك ينسى الجميع كل شيء عن الأمر القديم بقتل كل طفل اسرائيلي حديث الميلاد ، أما في قصة الخروج وفناء المصريين فلا يكاد موسى يلعب دورا على الاطلاق بل لا يكاد يذكر اسمه ، وخصائص البطل التي تنسبها قصة الطفولة لموسى تختفي تماما في موسى اللاحق فيكون فقط رجل الله وصانع معجزات مزودا بقوى خارقة للطبيعة منحها له يهوه ٠

اننا لا نستطيع أمام ذلك أن نهرب من الشعور بأن موسى قادش ومدين ، الذي يذهب التراث اليهودي الى حد ان ينسب اليه أنه أقام ثعبانا من النحاس كدب الشفاء ، يختلف تماما عن موسى المصري العظيم الذي منح شعبه ديانة تحرم السحر والشعوذة تحريما مطلقا ٠ وكذلك فان موسى المصري يختلف عن موسى مدين بالقدر الذي يختلف به الاله العالمي المطلق آتون عن الشيطان يهوه فوق جبله المقدس ٠ واذا كنا بعد ذلك على استعداد للتسليم بأي قدر من الصحة في المعلومات التي وصل اليها المؤرخون المحدثون فان علينا أن نعترف بأن الخيط الذي أردنا نسجه من افتراض ان موسى كان مصريا قد انقطع للمرة الثانية ، وفي هذه المرة لا يبدو ثمة أمل في امكان وصله ثانيا ٠

- ٨ -

مصرع موسى

غير أننا نستطيع أن نجد مخرجا من هذه الصعوبة اذا اعترفنا بأن شخصية موسى فى التوراة تمثل فقط كاهن قادش واليه يمكن أن تنسب الشهرة الواسعة التى عزاها التراث الى موسى ، وقد ذهب الى هذا مائير وجريسمان وآخرون ·

وفى عام ١٩٢٢ وصل ارنست سللين Ernst Sellin الى اكتشاف له أهمية حاسمة(١) فقد وجد فى سفر النبى هوشع (الذى عاش فى النصف الثانى من القرن الثامن قبل الميلاد) آثارا لا تخطئها البصيرة على مأثورة قديمة فحواها أن موسى مؤسس العقيدة لقى نهاية عنيفة فى تمرد قام به ضده شعبه العنيد العاصى ، وأن الديانة التى جاء بها قد هجرت فى نفس الوقت ، والواقع أن هذه المأثورة

(1) Ernst Sellin : Mose und seine Bedentung für die israelitisch-jüdische Religionsgeschichte (1922).

ليست قاصرة على هوشع بل انها تتكرر فى كتابات معظم الأنبياء اللاحقين، وهى فى الواقع كما يقول سللين أساس التوقعات القادمة بمقدم المسيح ، ففى أواخر عهد الأسر البابلى انبثق الأمل بين الشعب اليهودى فى أن الرجل الذى اغتالوه وعاملوه بكل هذه القسوة سوف يعود فى مملكة الموتى ليقود شعبه النادم التائب ـ وربما غير شعبه أيضا ـ الى مملكة البركة الخالدة ٠

ومن الطبيعى اننى لست فى مركز يمكننى من الحكم عما اذا كان سللين قد وصل الى النتيجة السليمة من قراءته لأسفار الانبياء أم لا ٠ ولكن اذا كان الرجل مصيبا فيما ذهب اليه فاننا نعتبر المأثورة التى اهتدى اليها معقولة تاريخيا ، وحتى اذا لم يكن هناك واقع مفهوم لاغتيال موسى الا انه اذا كان هذا قد حدث فان رغبة اليهود فى نسيانه تبدو مفهومه ، ولسنا فى حاجة بالطبع الى تصديق كل التفاصيل التى يأتى بها سللين ، فهو مثلا يعتقد أن أرض شيتيم Shittim بشرق الاردن كانت المكان الذى وقع فيه هذا الحدث العنيف ضد موسى ، وسوف نرى أن اختيار هذا المكان لا يتفق مع ما تذهب اليه ٠

فلنقبل الآن مع سللين افتراضه ان موسى المصرى قتله اليهود ونبذوا الديانة التى فرضها عليهم ، ان ذلك يتيح لنا أن نواصل نسج الخيط الذى انقطع دون أن نتناقض مع النتائج السليمة للبحث التاريخى ٠ ولكننا

سوف نغامر بأن نكون مستقلين عن المؤرخين الآخرين فى بعض النواحى ونتبع طريقنا الخاص ، ان نقطة البداية لنا ستظل الخروج من مصر ، ولا بد أن عدد الخارجين من مصر تحت قيادة موسى كان كبيرا لأن خروجه بجماعة صغيرة لايتناسب مع طموح هذا الرجل ومخططاته العظيمة، كما أن هؤلاء المهاجرين كانوا قد مكثوا فى مصر مدة كافية لأن يتكاثروا ، ولكن هذه الحقيقة لن تخدعنا بالتأكيد عندما نفترض مع أغلبية الباحثين أن ليس كل الشعب الذى أصبح يعرف بالشعب اليهودى قد عانى مصير العبودية فى مصر بل ان جزءا منه فقط هو الذى خرج من مصر ، أو بمعنى آخر أن القبيلة العائدة من مصر لحقت فيما بعد ـ فى الارض الواقعة بين مصر وكنعان ـ بالقبائل الاخرى التى تمت لها بصلة القربى والتى كانت قد استقرت هناك بعض الزمن • هذا الاتحاد ـ الذى ولد منه شعب اسرائيل ـ اقترن بانتهاج ديانة جديدة شائعة لدى كل القبائل المشتركة فى الاتحاد وهى ديانة يهوه ، وطبقا لمائير حدث ذلك فى قادش تحت تأثير أهل مدين ، وبعد ذلك بوقت طويل آنس الشعب فى نفسه المقدرة على غزو كنعان • ولذلك فليس مما يتناسب مع مجرى تلك الأحداث أن تكون الكارثة التى حدثت لموسى وديانته قد وقعت فى شرق الأردن ، ولكن ينبغى أن تكون قد حدثت قبل الاتحاد بوقت طويل •

فمن المحقق أن ثمة عناصر متباينة كثيرة قد ساهمت

فى تكوين الشعب اليهودى ولكن من الحقائق البارزة أن الأمة اليهودية تكونت من اتحاد فريقين وطبقا لهذه الحقيقة أيضا أقدمت الأمة اليهودية بعد فترة قصـــيرة فى الوحدة السياسية على الانقســـــام مرة أخرى الى جزئين : مملكة اسرائيل ومملكة يهوذا ، والتاريخ يحب هذا النمط من اعادة الشيء الى أصله حيث تظهر مرة أخرى الانقســـامات الدفينة وأوضح مثـــل لذلك ما حدث فى أوربا فى عصر النهضة حين ظهـــرت مرة أخرى ـ بعد فترة دامت ألف سنة ـ الحدود القديمة بين جرمانيا التى كانت رومانية وبين الجزء الآخر الذى ظل مستقلا دائما • وفى حالة الشعب اليهودى لا يمكن التحقق من الأمور بمثل هذا الوضوح لأن معرفتنا بهذه الأزمنة غير مؤكدة على نحو يسمح بافتراض أن المملكة الشمالية كانت تضم المســتوطنين الأصليين ، والمملكة الجنوبية تضم العائدين من مصر ، ولكن لا يمكن مع ذلك فصم هذا الانقسام عن فكرة الاتحاد السابق ، اذ من المحتمل أن يكون اليهود المصريون أقل عددا من الآخرين ولكنهم أثبتوا أنهم الأرفع ثقافة ، وكان لهم تأثير أكبر على التطور اللاحق للشـــعب لأنهم كانوا يحملون معهم تراثا يفتقده الآخرون •

ومن المحتمل أن يكونوا قد أحضروا معهم كذلك شيئا ملموسا أكثر من مجـرد التراث ، اذ المعروف أن من بين الألغاز الكبرى فى أزمنة اليهود الأولى مسألة من هم أسلاف اللاويين Levites فيقـال انهم اشتقوا من احدى قبائل

اسرائيل الاثنى عشر وهى قبيلة ليفى، ولكن ليست هناك أى مأثورات تذكر شيئا عن المكان الأصلى الذى كانت تضرب فيه هذه القبيلة أو المنطقة التى أعطيت لها من أرض كنعان المقهورة ، ويحتل اللاويون أرفع المراكز الدينية عادة ، ولكن اللاوى ليس بالضرورة كاهنا ، فهذا ليس اسـم طائفة ٠

وهنا تقدم نظريتنا عن موسى حلا للغز اللاويين، فليس من المعقول أن يكون سيد عظيم مثل موسى المصرى قد تقدم نحو شعب غريب عنه بدون مرافقين وحرس خاص اذ لابد انه جاء معه بحاشية تضم أنصاره المقربين وكتبته وخدمه ، فهؤلاء هم اللاويون الأصلاء ، وفى التراث أن موسى نفسه من اللاويين ، فاللاويون كانوا شعب موسى ، وهذا الحل يؤيده ما جاء فى الفقرة السـابقة كما يؤيده أيضـا ظهور أسماء مصرية بين اللاويين فى الأزمنة اللاحقة ، ويمكننا أن نفترض أن عددا لا بأس به من أفراد حاشية موسى هؤلاء تمكنوا من النجاة من المصير الذى ألم بموسى وعقيدته، وأنهم تكاثروا فى الأجيال التالية واختلطوا بالشعب الذى عاشوا بينه ، ولكنـهم ظلوا على ولاء لسـيدهم يكرمون ذكراه ويحافظون على تراثه وتعاليمه ٠ وفى الوقت الذى تم فيه الاتحـاد مع أتبـاع يهوه كانوا أقلية قوية النفوذ متميزة ثقافيا عن باقى اليهود ٠

واعتقد ـ وهـذا مجرد اقتراح حتى الآن ـ انه بين سقوط موسى وانشاء عقيدة قادش ظهر جيلان واختفيا أو

ربما يكون قد مر قرن بأكمله ، ولست أستطيع أن أحدد ما اذا كان المصريون الجدد(وأحب أن أطلق هـذا التعبير على الذين قدموا من مصر وهم متميزون عن بقية اليهود) قد اختلطوا ببقية قومهم بعد أن دخل هؤلاء فى عقيدة يهوه أم قبل ذلك ، ولكن ربما كان الاحتمال الثانى هو الأقوى ، وعلى أى حال فان ذلك لا يؤثر فى النتيجة النهائية وهى أن ما حدث فى قادش كان فى الواقع حلا وسطا أو تصالحا يفض خلافا بين الفريقين وتحملت فيه قبيلة موسى تنازلات لا يخطئها الحدس ٠

وهنا يمكننا أن نعود مرة أخرى الى عادة الختان التى قدمت لليهود مرارا خدمات جليلة ، هذه العادة أصبحت أيضا قانونا فى ديانة يهوه وحيث انها مرتبطة بمصر فان انتهاجها من قبل الاتحاد ككل يدل على تنازل هام لصالح شعب موسى ، فان هذا الشعب ـ أو على الأقل اللاويين منه ـ لم يكونوا ليقبلوا بالمرة التخلى عن علامتهم المقدسة هذه ، وفى مقابل حصولهم على هذا التنازل اعترفوا بالاله الجديد يهوه وبكل ما يقوله كهنة مدين عنه ٠ ومن المحتمل أن يكونوا قد استطاعوا الحصول على تنازلات أخرى منها الاقتصاد فى استعمال الاسم المقدس واطلاق اسم أدوناى على يهوه ، ولكن ظل الاسم يهوه يستخدم بكثرة فى الأسماء المركبة مثل جوشانان ، وجيهو ، وجوشوا ،ولكن لما كان الهدف من الاتحاد اثبات عظمة وقوة الاله الجديد يهوه فقد عزى اليه فضل اخراج اليهود من مصر ، وبدأوا يزينون

عملية الخروج هذه بمظاهر تثبت عظمة ذلك الاله البركانى رغم انه لا يستحقها ، ومن أمثلة هذه المظاهر عمود الدخان الذى يتحول الى نار فى الليل أو العاصفة التى فرقت مياه البحر ليمر عبره اليهود ثم تلتحم الأمواج بعد ذلك على مطارديهم ، وهكذا حدث تقريب زمنى بين الخروج وتأسيس الديانة الجديدة وأنكرت الفترة الفاصلة بينهما ، وكذلك فان منح الوصايا العشر قيل انه حدث عند سفح جبل مقدس وسط مظاهر تدل على انفجار بركانى ، ولكن هذا

التشويه للحقيقة كان بمثابة خطيئة كبرى من حق الرجل موسى الذى قام هو فعلا ــ وليس اله البراكين ــ بتحرير شعبه من مصر ،ولذلك كان من حقه أن يحصل على نوع من التعويض ، وكان هذا التعويض عبارة عن نقل موسى الى قادش أو الى جبل حوريب ووضعه فى مكان كاهن مدين وهكذا اكتمل التوازن أو الحل الوسط ، فقد سمح ليهوه بمد سلطانه الى مصر من جبله فى ميديا بينما نقل موسى ونشاطه الى قادش والبلاد الواقعة شرق الأردن وبهذ اتحد بالشخص الذى انشأ فيما بعد ديانة يهوه وهو زوج ابنة ثيرون كاهن مدين الذى أصبحوا يسمونه موسى .ونحن لا نعرف على أية حال شيئا عن شخصية موسى الآخر ــ الذى يحجبه تماما موسى الأول أو المصرى ــ فيما عدا بعض مفاتيح شخصيته التى تقدمها التناقضات التى يمكن العثور عليها فى تصوير التوراة لشخصية موسى ، ففى الوقت الذى يوصف فيه بأنه قوى ، حاد

المزاج ، بل عنيف أحيانا يقال عنه فى مواضع أخرى أنه كان أكثر الرجال صبرا وتواضعا ، ومن الواضح أن مثل هذه الصفات الأخيرة لا يمكن أن تكون بذات فائدة لموسى المصرى الذى اضطلع بمثل هذه المشروعات الشاقة العظيمة ، ولربما تعزى هذه الصفات الى موسى الآخر ، موسى مدين ولعل لنا الحق بعد ذلك فى أن نفصل الشخصين أحدهما عن الآخر ، ونفترض أن موسى المصرى لم يذهب مطلقا الى قادش ولم يسمع مطلقا باسم يهوه ، كما أن موسى مدين لم يضع قدمه فى مصر ، ولم يعرف شيئا عن آتون ، و لكن من أجل أن يصبح الاثنان واحدا جعل التراث أو الأساطير موسى المصرى يذهب الى مدين وموسى مدين يذهب الى مصر !

•

- ٩ -

تحريف التوراة

يقول فرويد : اننى على استعداد تام لأن أسمع من جديد أصوات التوبيخ تنهال على نظير ما أقدمت عليه من اعادة بنـــاء التاريخ المبكر لقبيلة اسرائيل على نحـو غير يقينى ، ولكنى لن أشعر بقسوة هذا الانتقاد حيث أنه يجد صدى فى حكمى الذاتى ، فاننى نفسى أعلم أن هذا البناء فيه نقط ضعيفة كما أن له نقطه القوية أيضا ، وعلى كل فان الحجج المؤيدة لاستمرار هذا العمل فى نفس الاتجاه تنتصر فى النهاية لأن التـوراة تحتـوى على مادة تاريخية مشكوك فى صحتها فقد شـوهت لأغراض معينة وتأثرت بالخيال الشعرى بحيث لا يمكن أن يؤخذ ما جاء فيها على أنه حقيقة تاريخية .

ويشرع فرويد فى توضيح كيف حدث التشـــويه للتوراة وبخاصة فى الأسفار الخمسة الأولى المنسوبة الى موسى وسفر هوشع ، فيلاحظ أن أقـــدم مصدر للتوراة

يذكر اسم الرب على انه «يهوه» ويعتقد الباحثون المحدثون أن واضعه هو الكاهن ابجاتار Ebjatar الذى كان معاصرا الملك داود • وبعد ذلك بفترة ــ لا يدرى أحد مداها على وجه اليقين ــ وجدت النسخة الثانية التى تذكر اسم الرب على أنه « الوهيم » وهى تخص مملكة الشمال ، وبعد تخريب هذه المملكة فى عــام ٧٢٢ قبل الميــلاد قام كاهن يهودى بكتابة التوراة من جديد مازجا بين أجزاء فى نسخة «يهوه» ونسخة « ألوهيم » ومضيفا مساهماته الخاصة أيضا • وفى القرن السابع قبل الميلاد أضيف الكتاب الخامس « سفر التثنية » الذى لم يكن معروفا من قبل وقد زعموا انه سفر قديم عثروا عليه حديثا فى المعبد ، وفى الزمن التالى لتخريب المعبد الذى حدث عام ٥٨٦ ق•م• أثناء النفى وبعد العودة أعيدت كتابة التــوراة مرة أخرى فى النســـخة المعروفة بالقانون الكهنوتى Priestly Code وشهد القرن الخامس قبل الميلاد نسخة نهائية وضعها عذرا ونحميا ، ومنذ ذلك الوقت لم تتغير مادة التوراة •

أما تاريخ الملك داود وعصره (ســفر الملوك الأول والثانى) فمن المعتقد أنه من وضع أحد معاصريه ، ولذلك جاء تاريخــا حقيقيا قبـــل أن يكتب هيرودوت تاريخه بخمسمائة عام •

أما تاريخ الكتابة العبرية فيرجع الى عصر موغل فى القدم • ويقال أن كتبة موسى ساهموا فى اختراع الحروف الأبجديــة الأولى ، ونحن لا نعــرف بالطبــع ما اذا كانت

النصوص الأولى تعتمد على مصادر مكتوبة سابقة أم على الذاكرة ، وكذلك لا نعرف كم انقضى من الوقت بين وقوع الحدث وتسجيله كتابة · ولكن على أية حال فان النص كما يصلنا اليوم يتحدث بنفسه عن تاريخه الخاص ، اذ تظهر فيه قوتان متعارضتان تنازع كل منهما الأخرى وتتجاذبان النص فيما بينهما فتتركان أثرهما عليه بوضوح : احدى القوتين هى الرغبة فى تغيير النص أو تشويهه أو توسيعه بحيث ينقلب الى ضده ، والقوة الثانية هى شعور بالتقديس تجاه النص يجعل كل شيء يبقى على عهده بغض النظر عما اذا كانت التفاصيل تتفق فيما بينها أم تتناقض · ولذلك فاننا نعثر فى كل مكان من التوراة على آثار حذف ملموس ، أو تكرار ممل ، أو تناقض واضح ، وعملية تشويه نص لا تختلف عن عملية قتل انسـان ، صعوبتها ليسـت فى ارتكاب الفعل وانما فى ازالة آثاره ، على أن بعض آثار عملية التشويه تبقى مع ذلك ، وهذا هو السبب فى أننا كثيرا ما نعثر بين النصوص المشوهة على بعض المواد المراد حجبها أو انكارها مختفية فى مكان ما ، ولكنها مسجلة فى شكل مختلف ومنتزعة من مكانها الأصلى ، غير أن المشكلة هى عدم امكان التعرف عليها بسهولة ·

وعوامل التشويه التى نبحث عنها لابد أن تكون قد أثرت فى التراث قبل أن يكتب ، ومن أمثلتهـا ، وربما أقواها ، ما اكتشفناه من قبـل عما حـدث عندما أقيمت شريعة الاله « يهوه » فى قادش ، فقد كان لابد أن يفعل

شيء لاضفاء العظمةعليه ، وكان هذا الشيء هو ازالة الديانات السابقة عليه ومنها شريعة أدوناى نفسها ، ويبدو أن ذلك تم بنجـــاح وسهولة بالنسبة لأديان القبائل المستقرة فى المنطقة فلم نعد نسمع عنها كلمة فيما بعد ، ولكن الأمر لم يكن سهلا بالنســبة للقبائل العــائدة من مصر فقد كانت مصممة على أن لا تتجرد من تجربة الخروج وذكريات الرجل العظيم موسى وعادة الختان ، ولكنها فى نفس الوقت كانت تريد من الآن فصاعدا أن تنكر أى أثر للنفوذ المصرى ، وهكذا جرى التخلص من موسى المصرى بوضعه فى مدين وقادش وجعله رجلا واحدا مع الكاهن الذى أسس ديانة « يهوه » . أما الختان ، وهو أكبر رمز للاعتماد على مصر ، فقد احتفظ به ، ولكن بالرغم من كل الأدلة القائمة بذلوا كل جهد ممكن لفصم هذه العادة عن مصر ، ومن هنا جاء هذا النص المبهم الغامض فى سفر الخروج والمكتوب بطريقة غير مفهومة تقريبــا بأن الرب غضـــب على موسى لأنه كان أغلف أى غير مختتن ، ولكن زوجة موسى المدينية أنقذت حياته بأن سارعت باجراء عملية الختان له ، وهذا بالطبع تناقض متعمد مع الحقيقة الواضحة ، وسوف نلتقى حالا باختلاق آخر بغرض اخفاء دليل آخر غير مريح .

ويكاد يكون من الصعب أن يوصف هذا الاختلاق بأنه جديد ، فهو فى الواقع استمرار لما قبله ، وذلك هو الزعم بأن يهوه ليس الها جديدا غريبا على اليهود وانما هو الههم من قديم الأزل ، ولذلك قيل ان يهوه هو اله الآباء

الأولين ابراهيم واسحق ويعقوب (ولكن يهوه نفسه يعترف بأن هؤلاء الآباء لم يعبدوه بهذا الاسم وانما تحت اسم آخر رغم انه لا يصرح به !) ، وهنا حانت الفرصة لتوجيه ضربة قاضية الى الأصل المصرى لعادة الختان ، فقد قيل ان يهوه طلب من ابراهيم أن يفرض الختان كعلامة مميزة للرابطة بين أحفاد ابراهيم ، ولكن هذا الاختلاف لا يتسم حتى بالذكاء فاذا كنا نريد استخدام علامة لتمييز أحد عن بقية الناس فان علينا أن نختار شيئا لا يميز بالفعل أناسا آخرين وليس بالتأكيد شيئا يوجد مثله لدى ملايين الناس ، وعلى ذلك - اذا صدقنا هذه القصة - فان الاسرائيلى الذى اتخذ علامة الختان لتمييزه ينبغى عليه اذا وجد نفسه فى مصر أن يعتبر جميع المصريين أخوة له تربطه واياهم نفس رابطة الأخوة فى يهوه ، ولا يمكن أن يكون الذين كتبوا نص التوراة يجهلون أن عادة الختان موطنها مصر فان سفر هوشع نفسه يعترف بذلك ، ومع ذلك كان من الضرورى أن يفعلوا شيئا لانكار هذه الحقيقة ، ولسنا نتوقع من الأساطير الدينية أن تولى عناية كبيرة للمنطق، بل ان منطق واضعى التوراة نفسه كان يحتم هذا الاختراع اذ لا يمكن بدونه تفسير سلوك اله يتعاقد مع آباء شعب ثم يهمل أبناءهم هذه الفترة الطويلة ثم يعود فيتجلى فجأة للأحفاد ويفرض عليهم علامة مميزة ، اذ عندئذ يمكن أن يقال لهذا الاله ولماذا لم تفرض هذه العلامة من قبل ؟

ومما يثير الدهشة على نحو أشد فكرة أن هذا الاله قد اختار فجأة شعبا ما وجعله شعبه الخاص ونصب نفسه

الها له ، وأعتقد أن هذه هى الحالة الوحيدة من نوعها فى تاريخ الأديان البشرية • ففى الحالات الأخرى نجد أن الشعب والاله لا يمكن الفصل بينهما فهما واحد منذ البداية ، حقا اننا قد نسمع فى بعض الأحيان عن شعب يتخذ الها جديدا ، ولكننا لم نسمع مطلقا عن اله يختار شعبا جديدا ، غير اننا ربما استطعنا أن نجد تفسيرا لهذا الحدث الفريد عندما نتأمل العلاقة بين موسى والشعب اليهودى ، فان موسى قد نزل الى اليهود وجعلهم شعبه أى جعلهم « الشعب المختار » •

وهناك غرض آخر يخدمه ادخال الآباء الأولين فى ديانة يهوه الجديدة ، فهم قد عاشوا فى كنعان ، وربما كانوا هم أنفسهم أبطالا كنعانيين أو أنبياء محليين اغتصبهم اليهود لأنفسهم عندما هاجروا الى أرض كنعان فى أوائل تاريخهم أى قبل ظهور يهوه بأمد طويل ، ولذلك فان ادخالهم الآن فى ديانة يهوه يهدف الى اعطاء دليل على أن اليهود ليسوا غرباء على أرض كنعان التى يستعدون لدخولها ، وأنهم لا يدخلونها كفاتحين غرباء ، فلجأوا الى هذه الحيلة الماهرة وهى أن الاله يهوه قد وعدهم بالأرض التى كان يحتلها أسلافهم بالفعل •• أولئك الأسلاف الذين كانوا يعبدون يهوه أيضا ولكن تحت اسم آخر !

وبهذا يسلط فرويد الضوء على حقيقة هامة هى أن اليهود لم يكن لهم حق تاريخى فى دخول أرض كنعان وانما

افتعلوا هذا الحق افتعالا ، وبذلك يعتبر استقرارهم فى كنعان (فلسطين القديمة) بمثابة اغتصاب لهذه الأرض تماما كموقفهم الآن حين نأتى الصهيونية لتبعث أسطورة أرض الميعاد والحق التاريخى لتبرير اغتصاب فلسطين مرة ثانية ــ بل ثالثة ــ فى القرن العشرين !

أما عن حقيقة عدم كون ابراهيم يهوديا فيمكننا أن نشير فى هذا المجال الى ماذكره القرآن الكريم فى سورة البقرة « ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين » .

- ١٠ -

أمتان .. وعقيدتان

من بين كل أحداث ما قبل التاريخ اليهودى المكتوب ليس هناك حدث من الممكن أن نفهم الدوافع الى طمسه مثل جريمة اغتيال الزعيم والمحرر موسى ، وقد استطاع سللين أن يعثر على مفـاتيح الجريمة فى أسفار الأنبياء ، وهذا الفرض الذى يقـدمه سللين لا يمكن أن يوصف بأنه من نسج الخيال بل هو محتمل الى حد بعيد ، فان موسى الذى تدرب فى مدرسة أخناتون كان يســـتخدم نفس وسائله الاستبدادية (وفى تلك العصور لا يكاد يتصـور وجـود وسائل أخرى لنشر النفوذ) وربما أيضـــا كانت نظرية موسى أكثر تشددا من نظرية أستاذه ، وليس من المستبعد أن يكون موسى قد لقى نفس المصير الذى لقيه أخناتون والذى ينتظر جميع الطغاة المتنورين ، فان الشعب اليهودى الذى رافق موسى لم يكن يستطيع أن يتحمل عبء هذه الديانة الروحية الرفيعة ، أو أن يجد فيما تقدمه ما يشبع حاجته

الى الاعتبارات المادية تماما كما فعل المصريون فى الأسرة الثامنة عشرة ، ففى الحالتين حدث نفس الشيء : ثار الذين أحسـوا أنهم تحت الوصاية أو الذين أحسـوا بانتقاص امتيازاتهم وألقوا بعيدا عبء العقيدة الجديدة التى فرضت عليهم ، ولكن بينما صبر المصريون الودعاء حتى تدخل القدر بازالة شـخص فرعون المقدس فان الساميين المتوحشـين أخذوا مصيرهم بأيديهم وتخلصوا بأنفسهم من طاغيتهم ٠

ولا أحد يسـتطيع أن يزعم أن نص التوراة نفسـه الموجود بين أيدينا لا يهيىء أذهاننا لقبول هذه النهاية التى لقيها موسى ، فعند قص أحداث التيه فى الفلاة ـ وهى الفترة التى حكم فيها موسى ـ توصف لنا سـلسلة من الثورات الخطيرة ضد سـلطة موسى ، وكانت ـ بفضل يهوه ـ تخمد بشدة ، ومن السهل أن نتصور أن احدى هذه الثورات أتت بنتيجة عكسية لما يقرره النص دائما ٠ كما أن تخلى الشعب عن الديانة الجديدة مذكور أيضا فى النص ـ على أنه لفترة قصيرة ـ كما يتضح من قصة عبادة العجل الذهبى التى دفعت موسى فى موجة غضبه واستيائه الى تحطيم ألواح القوانين فضلا على أن تحطيم هذه الألواح يفهم رمزيا على أنه تخل عن العقيدة ٠

ولكن جاء الوقت الذى شعر فيه الشعب بالاسف على مقتل موسى وحاول نسيان هذه الجريمة ، كان ذلك بالتأكيد فى وقت التجمع فى قادش ، وقد وجدوا الحل السعيد فى

تقريب موعد الخروج بحيث يقترب من موعد تأسس العقيدة فى الواحة وافتراض ان موسى هو مؤسس العقيدة بدلا من كاهن مدين ، فان ذلك لم يكن ليرضى شعب موسى فحسب وانما معناه أيضا انكار هذه الحقيقة المؤلمة وهى التخلص من موسى على هذا النحو العنيف ، رغم أنه من الناحية التاريخية والنفسية لا يمكن تصور أن يكون موسى قائد الخروج قد شارك فى أحداث قادش وتأليه رب البراكين يهوه ، حتى لو كانت الحياة قد امتدت به الى ذلك الحين ٠

وهنا ينبغى علينا أن نحاول تتبع هذه الأحداث بشىء من التفصيل ، لقد وضع فرويد الخروج من مصر بعد انهيار الأسرة الثامنة عشرة (١٣٥٠ ق٠م) فلا بد أن يكون قد حدث عند ذلك مباشرة أو بعده بقليل لأن السجلات المصرية تذكر فترة من الفوضى دامت عدة سنوات قبل حكم حورمحب الذى أقر النظام واستمر فى الحكم حتى عام ١٣١٥ ق٠م ٠ والشىء التالى ، وربما الشىء الوحيد ، الذى تحتفظ به السجلات المصرية عن هذه الاحداث هو لوحة منفتاح (١٢٢٥ ـ ١٢١٥ ق٠م) التى تسجل احراز النصر على ازيراك (اسرائيل) وقد جاء فى هذه اللوحة :

« لقد غلب الملوك وقالوا سلاما
وخربت تحينو
وهدأت أرض الحيثيين
وانتهبت كنعان وحلت بها الشرور
وخربت (ازيرال) ولم يعد لأبنائها وجود ٠ »

وللأسف فان قيمة هذه اللوحة محل شك فهى تؤخذ دليلا على أن القبائل الاسرائيلية كانت قد استقرت فى هذا التاريخ فى كنعان ، وقد استخلص مائير بحق من هذه اللوحة أن منفتاح لا يمكن أن يكون فرعون الخروج ، كما كان الرأى السائد من قبل ، بل لا بد أن يكون الخروج قد حدث قبل ذلك بفترة طويلة ، ومسألة من هو الفرعون الذى كان يحكم وقت الخروج تبدو لى عديمة الجدوى ، فلم يكن هناك فرعون فى ذلك الوقت لأن الخروج حدث خلال فترة الفوضى بين العهدين ، ولكن لوحة منفتاح لا تلقى أى ضوء على التاريخ المحتمل أن يكون قد حصل فيه اندماج القبائل اليهودية وتبنيها عقيدة يهوه فى قادش ، كل ما نستطيع قوله على وجه التأكيد أن ذلك حدث فى وقت ما بين عامى ١٣٥٠و و ١٢١٥ ق٠م٠ وخلال هذا القرن يمكن أن نفترض أن الخروج كان قريبا جدا الى التاريخ الأول واحداث قادش ليست بعيدة جدا عن التاريخ الثانى ، والجزء الأكبر من هذه الفترة نحتفظ به للمسافة بين الحدثين فلا بد أن تكون قد مرت فترة طويلة نسبيا حتى تكون السورة النفسية لدى القبائل العائدة من مصر قد هدأت بعد اغتيال موسى ويكون نفوذ اللاويين ـ حاشية موسى ـ قد أصبح بالقوة التى ظهرت فى اتفاقية قادش ، وقد يكفى لذلك جيلان ، ٦٠عاما ولكن التاريخ المستخلص من لوحة منفتاح يقع فى وقت مبكر جدا بالنسبة للأحداث التى تلت الاتحاد ، ولما كنا نعلم ان افتراضنا يعتمد بعضه على بعض لذلك كان علينا ان نعترف

بأن هذه المناقشة تظهر نقطة ضعف فى بنائنا ، ولسوء الحظ فان كل ماله صلة باستقرار الشعب اليهودى فى كنعان غامض ومضطرب .

غير أن هذه نقطة تفصيلية غير مؤثرة ، أما ما يستحق البحث بعد ذلك فهو كيف تمكن يهوه من البقاء الها ولم يضع فى زمرة آلهة الشعوب القديمة التى لم يكتب لها البقاء؟

يقول فرويد ان يهوه فى حد ذاته كان الها محليا ضيق الافق خشنا عنيفا محبا للدماء وعد اتباعه أن يغتصب لهم « أرضا تفيض باللبن والعسل » وشجعهم على التخلص من سكانها الحاليين « بحد السيف » (ما أقرب اليوم الى البارحة !) ومن المدهش حقيقة أنه بالرغم من كل التعديلات التى لحقت بنص التوراة فلا يزال فيها ما يكفى لاعطاء صورة عن حقيقة هذا الاله الاصلية . حتى أنه ليس من المؤكد أن عقيدته تقوم على التوحيد الصحيح أى أنها تنفى الربوبية عن الآلهة الآخرين بل هى فى الواقع تكتفى بتغليب يهوه على غيره من الآلهة الأخرى .

كيف اذن كتب لهذا الاله المتخلف البقاء ؟ وكيف أخذت الاحداث اللاحقة مجرى مختلفا تماما عما كان متوقعا أن تؤدى اليه هذه البداية ؟

ان الفضل فى ذلك يرجع الى أن أحد فريقى الشعب اليهودى كان قد تلقى عن موسى المصرى فكرة أخرى أكثر روحانية عن الاله ، فهو اله واحد يحتضن العالم كله ، محبوب

بقدر ما هو قادر ، ينهى عن السحر والخرافة والشعوذة ، ويجعل الهدف الاسمى للانسانية الحياة الفضلى العادلة لأنه مهما كانت معلوماتنا عن الجانب الأخلاقى فى عقيدة آتون ضئيلة فيكفى أن أخناتون كان يصف نفسه بأنه الذى يحيا فى الحق والفضيلة (ماعت) ، وفى المدى الطويل لم يعد مهما أن يكون الشعب اليهودى قد نبذ تعاليم موسى وتخلص من الرجل نفسه فان أفكار موسى قد استمرت ونفوذه سرى عبر القرون ليتمكن فى بطء من تحقيق الهدف الذى لم يستطع تحقيقه موسى نفسه ، أما الاله يهوه الذى اغتصب لنفسه فضلا لا يستحقه منذ عهد قادش فقد كان عليه أن يدفع ثمنا غاليا لهذا الاغتصاب، فان ظل الاله الذىاغتصب مكانه أخذ يكبر حتى صار أقوى منه ، وفى نهاية التطور التاريخى قفز اله موسى المنسى الى الصدارة وليس من شك ان فكرة هذا الاله وحدها هى التى مكنت اليهود من التغلب على المشاق التى واجهتهم والبقاء الى عصرنا الحاضر .

وليس من السهل تحديد الدور الذى لعبه اللاويون بدقة فى تحقيق النصر النهائى لاله موسى على يهوه ، ولكن لا ريب فى أنه عندما كانت اتفاقية قادش محلا للنقاش رفعوا صوتهم من أجل موسى الذى كانت ذكراه لا تزال حية فى أذهانهم بصفتهم أتباعه ومواطنيه ، وفى القرون التاليـة اندمج اللاويون مع الشعب وتخصصوا فى المراكز الدينية بالذات فأصبح منهم عدد كبير من الأنبياء والكهان وهؤلاء هم الذين وكلت اليهم مهمة حفظ التراث وتنقيح التوراة

وكان هؤلاء الرجال الانبياء هم الذين أخذوا يبشرون بنظرية موسى القديمة : أن الاله الحق لأحد يزدرى القرابين والطقوس انه لا يطلب سوى الايمان به والحياة فى الحق والعدل (ماعث) • وقد أحرزت جهود هؤلاء الأنبياء نجاحا وانتشارا وأصبحت النظريات التى يعدلون بها العقيدة القديمة هى المضمون الدائم للديانة اليهودية •

ويقتبس فرويد آراء لكتاب آخرين عن كيفية انتشار عقيدة التوحيد بين الشعب اليهودى تؤيد وجهة نظره • فيقول نقلا عن سللين « ان عقيدة التوحيد التى جاء بها موسى كانت مقصورة فى أول الامر على دائرة صغيرة من الناس ، ولا يمكن أن نتوقع وجودها منذ البداية فى الديانة الرسمية أو فى معتقدات الكهان أو فى المعتقدات العامة للشعب ، كل ما يمكن أن نتوقعه أن تنطلق هنا أو هناك شرارة من النار الروحية التى أوقدها موسى لتدل على أن أفكاره لم تمت بل تؤثر حثيثا فى المعتقدات والعادات الى أن يأتى الوقت الذى تظهر فيه مرة أخرى وتنتشر بين عامة الناس » •

أما فولز Volz فيقول على نحو أكثر صراحة « ان عقيدة موسى كانت فى أول الأمر لا تكاد تفهم ولا تكاد تكون مطبقة ، ولكن مع مرور القرون أخذت تتغلغل رويدا رويدا فى روح الشعب ، وأخيرا وجدت الأنبياء العظام الذين تفهموها وواصلوا العمل الذى بدأه المعلم الذى عاش وحيدا فى عصره »

ثم يقول فرويد : الى هنا نأتى الى ختام البحث الذى كانت غايتى فيه أن ألائم بين شخصية موسى المصرى وبين التاريخ اليهودى ، وأستطيع الآن أن الخص نتيجتى النهائية فى هذه العبارات المختصرة : ان التاريخ اليهودى يقدم على الثنائية ، كان هناك شعبان اندمجا معا فى أمة واحـــدة ولم تلبث هذه الأمة ان انقسمت الى مملكتين ، وهناك اسمان للاله فى أصل التوراة ، بل كانت هناك عقيدتان فى الواقع طردت الاولى بوساطة الثانية ولكنها لم تلبث أن ظهرت منتصرة فى النهاية ، وكان هناك مؤسسان لهاتين العقيدتين حمل الاثنان نفس الاسم « موسى » • وقد قمنا فى هذا البحث بالفصل بين الشخصين ، وكل هذه الثنائية جاءت كنتيجة ضرورية لنقطة البداية المزدوجة •

- ١١ -

رد اليهود على فرويد

تصدى بعض الكتاب اليهود لفرويد محاولين الرد على نظريته التى يقلب بهــا التــاريخ اليهودى رأسا على عقب ، ومن هؤلاء الكتاب دافيد باكان David Bakan استاذ علم النفس بجامعة ميسورى الامريكية الذى درس اهتمــامات فرويد بالمســألة اليهودية فى مراحل عمره المختلفة ووضع فى ذلك مؤلفا بعنوان Sigmund Freud and the Jewish Mystical Tradition وخــرج فيه بأن فرويد تأثر ببعض التيارات الالحــادية المتوارثة بين يهود شرق أوربا .

ولم أستطع العثور على كتاب باكان المشار اليه ولكنى عثرت له على مقال فى نفس الموضوع ظهر فى مجلة Commentary التى تصــدرها اللجنــة الامريكية اليهودية ، والمقال بعنوان « موسى فى فكر فرويد » وقد

ظهر فى عدد أكتوبر ١٩٥٨ وسوف نستعرض هذا المقال لنرى أسلوب الرد اليهودى على نظرية فرويد المبتكرة .

يناقش باكان فى مقاله أولا بحثا لفرويد ظهر فى مجلة ايماجو الألمانية عام ١٩١٤ بعنوان Moses of Michelangelo سجل فيه العالم النفسى الكبير ملاحظاته على تمثال موسى الذى صنعه المثال مايكل أنجلو فى مطالع عصر النهضة ، ثم يناقش باكان بعد ذلك كتاب فرويد « موسى والتوحيد ».

كتب فرويد مقاله عن تمثال مايكل انجلو بعد تأملات طويلة للتمثال وهو يعترف بأنه لا يوجد عمل فنى آخر ترك فى نفسه مثل هذا الانطباع العميق الذى تركه تمثال موسى . وقد ذكر فرويد كيف كان كثيرا ما يتسلل الى منصة التمثال القائم فى رحبة تتوسط الكنائس الموحشة ، فيصعد درجاتها المبتلة ويظل بالساعات يتأمل نظرة البطل المليئة بالغضب والاحتقار ، وعندئذ ـ كما يقول فرويد ـ كان يتخيل نفسه من أولئك الرعاع الذين يوجه اليهم موسى هذه النظرة .. أولئك الذين لا يمكن اعتبارهم أوفياء لعقيدة ما وليست لديهم المقدرة على الايمان والصبر ، والذين ابتهجوا عندما استردوا أوهام معبوداتهم القديمة .

ويلاحظ باكان ان شخصية موسى كان لها اكبر

الأثر على فرويد منذ دراساته المبكرة للكتاب المقدس حتى آخر كتاب وضعه في حياته ، ولذلك فان هذا المقال عظيم الاهمية بالنسبة لمحاولة فهم نفسية فرويد ذاتها ، ويدل على ذلك أن المقال ليس من النوع الذى يمكن توقعه من عالم نفسانى ، فهو لا يحوى تحليلا نفسيا لمايكل انجلو صانع التمثال ، وانما يركز المقال على التمثال نفسه محللا شخصية موسى كما صورها مايكل انجلو فكأنه يحلل نفسية التمثال لا المثال .

ويضيف باكان أن فرويد كان يتخذ التمثال ذريعة لتوضيح مشكلته الخاصة ازاء موسى ، وهو ينتهى الى أن التمثال لا يمثل موسى وهو على وشك أن يهب واقفا فى غضب ليحطم ألواح الوصايا العشر بعد مروق شعبه . بل على العكس فان ما يعبر عنه التمثال هو الغضب المكظوم أى الغضب الذى لن يتجسد فى عمل عدائى . ويقول فرويد انه كان يجلس بالساعات والأسابيع أمام تمثال مايكل أنجلو عله يرى كيف يمكن أن يشرع فى الوقوف على قدميه ثم يلقى بألواح القوانين على الأرض لينفس عما يشعر به من ازدراء وغضب ، ولكن شيئا من ذلك لا يبدو انه سوف يحدث بل على العكس فان التمثال الحجرى يزداد ثباتا وينبعث منه هدوء ساحر كما لو أن ما يريد الفنان أن يمثله ليس الحركة بل السكون ، وان موسى لن يتمكن من التفريج عن غضبه وانما سيظل فى هذا الغضب الى الأبد . »

ويمضى فرويد قائلا .. ان ما نراه امامنا ليس شروعا فى اتخاذ عمل عنيف وانما بقايا حركة حدثت فعلا ، فعندما شعر موسى بالغضب كان يرغب أن يتصرف بأن يهب واقفا على قدميه ليصب جام غضبه على شعبه ويحطم الواح القوانين ، ولكنه تغلب على هذا الاغراء وسوف يظل جالسا لا يريم فى حالة من الغضب الجامد، والالم المشوب بالاحتقار .

بعد هذه المقتبسات التى يوردها باكان يقول ان ارنست جونز الذى كتب سيرة حياة فرويد يذكر أن فرويد وقت كتابته هذا المقال كان يعانى قلقا عميقا بسبب مروق تلميذه يونج C.G. Yung عن طريقته فى التحليل النفسى ، وكان يونج فى غاية الاهمية بالنسبة لفرويد لأنه كان يرى فيه جسرا الى العالم غير اليهودى Gentile World

ويضيف جونز انه يفسر هذا المقال كما يلى : كان يونج قد مرق من نفوذ فرويد (مثلما عصى اليهود موسى) وكان على فرويد أن يجد وسيلة لكبت غضبه العميق نتيجة لهذا المروق ، فأخذ يتصور أن موسى نفسه لم ينفجر غاضبا بعد عصيان شعبه وانما تمالك أعصابه وارتفع على الموقف .

ويقول دافيد باكان : ونحن نتفق مع جونز فى هذا التفسير ولا سيما فيما يتعلق بالترابط النفسى بين

فرويد وموسى ، ولكن نضيف اليه أنه لما كان فرويد يعتبر نفسه حامل شريعة جديدة (التحليل النفسى) فان عليه حتما أن يكون مثل موسى صاحب الشريعة السابقة وان يأخذ مكانه ، اى ينبغى عليه أن يدمر موسى ، فان الشريعة الجديدة يجب أن تنسخ الشريعة القديمة ، وعندئذ يتحول التطابق بين شخصية فرويد وشخصية موسى الى تنافر حاد ، فيدمر فرويد موسى !

ونحن نعجب لهذا التفسير المغرض الذى يحاول أن يضع فرويد ضد موسى ولكننا نفهم بواعثه اذا عرفنا أن ذلك يسهل النتيجة التى يهدف اليها الكاتب اليهودى وهى تصوير فرويد بأنه يرغب فى تدمير موسى لأسباب شخصية تتعلق بنفسيته هو . اذ لو أمكن الوصول الى هذه النتيجة لأصبح من السهل تجريح ورفض نظرية فرويد عن موسى والتاريخ اليهودى بدون حاجة الى مناقشتها موضوعيا ، وهذا ما يحاوله باكان فى الجزء التالى من مقاله .

اذ ينتقل باكان الى كتاب « موسى والتوحيد » ولكنه لا يرد على حجج فرويد الموضوعية وانما يحاول ــ كما فعل في الجزء السابق ــ أن يتخذ الكتاب نفسه وسيلة لتحليل نفسية فرويد بطريقة تعسفية أو يناقش بعض جوانبه من زوايا تفصيلية لا أهمية لها مستغلا التحفظات الكثيرة التى ساقها فرويد أثناء عرض نظريته .

وأول ما يلاحظ هو هجوم باكان على العمل ككل فهو يصف الكتاب بأنه نتيجة حالة « خرف وشيخوخة » وأنه ربما كان من الافضل لذكرى فرويد تجاهله بالمرة ! وينقل باكان عبارة لكاتب يهودى آخر يدعى موريس رفايل كوهين يقول فيها : « لو كان أى شخص آخر قد كتب هذا الكتاب لكان من حقنا أن نرفضه كوجهة نظر مفكر ملتو يهتم بتكهناته المعوجة اكثر مما يهتم بالحقائق المؤكدة .. »

هكذا ببساطة يحاول الكتاب اليهود الغاء كل قيمة لهذا العمل الذى كان آخر ما انتجه فرويد عندما بلغ قمة نضجه الفكرى دون مناقشة لانه يسلط الأضواء على بعض الخبايا المزرية فى النفسية اليهودية عبر التاريخ . ولكن ليت ذلك كان كافيا .. ان باكان مطالب بأن يقدم ردا موضوعيا .

وهذا ما يحاوله باكان على مضض حين يقول : ان الدليل الذى أقام عليه فرويد نظريته انما هو دليل مشكوك فيه ولا يدعم النتائج التى وصل اليها ، فان حجته فى أن موسى كان مصريا تعتمد جزئيا على دليل لغوى مشكوك فيه خاص باسم موسى . وفرويد نفسه لا يعتبر هذا الدليل حاسما ، كما يعتمد من ناحية أخرى على المقارنة بين اسطورة موسى والأساطير الاخرى الخاصة بالأبطال القدماء ولكنها مقارنة ضعيفة الحجة .

ويضيف باكان أن موسى حسب التراث اليهودى نفسه كان يهــوديا ومصريا معا يهــوديا بالميلاد ومصريا بالنشأة ، والقول بأن موسى أخذ ديانة آتون المصرية كما يقــول فرويد لا يتطلب بالضرورة أن يكون موسى أجنبيا (أى مصريا) بل يمكن ان يتمشى تأثر موسى بعقيدة اخناتون مع قصة الكتاب المقدس عن نشأة موسى فى البيت الملكى المصرى ، ولكن فرويد يعتبر فكرة أن موسى كان أجنبيا فكرة أســـاسية رغم ان نظريته لا تعتمد بالضرورة على هذه الفكرة ، واذا كان فرويد قد قال فى كتابه عبارة « ان موسى كان مصريا احتـــاج الشعب اليهودى الى جعله يهوديا » فانه يمكن بتطبيق نظرية فرويد فى أن المحتوى يميل الى أن يحمل عكس معناه أن توضع العبارة كما يلى «ان موسى كان يهوديا احتاج فرويد الى أن يجعله أجنبيا » .

ويناقش الكاتب اليهودى باكان العوامل الدفينة التى دفعت فرويد فى رأيه الى افتعال أن موسى كان مصريا فيقول ان فرويد عندما يدفع موسى زعيم اليهود الى مركز عال واصل ملكى انما يريد بذلك أن يتغلب على شعوره بالمهانة باعتباره ــ أى فرويد ــ يهوديا ينتمى الى أصل اجتماعى متواضع ، اذ أن فرويد كما هو معروف من سيرة حيـــاته كان يشعر بحســـاسية كبيرة ازاء المركز الاجتماعى الوضيع الذى تضعه فيه يهوديته ، ونظرية فرويد فى أن اليهود تبناهم أجنبى ينتمى الى أصل نبيل

تجعله يتغلب على هذا الشعور بالمهانة المرتبط بمشاعره اليهودية .

ولسنا فى حاجة الى مناقشة طويلة لهذا الرأى ، فمن الواضح أنه يعمل الى أسلوب الهجوم الشخصى ليتجنب الحديث الموضوعى . كما أن هذا التفكير تفوح منه رائحة الصهيونية ، فالفكر الصهيونى يحاول تعميق مشاعر المهانة لدى اليهود وتضخيم نزعة معاداة السامية فى نفس الوقت، حتى يترسب لدى اليهود الاحساس بأنه لا خلاص لهم فى المجتمعات التى يعيشون فيها مهما بلغوا من شأو – كفرويد مثلا – بل يظلون فريسة لمشاعر المهانة ومعاداة السامية التى تطاردهم حتى فى عقلهم الباطن ، ولذا فان الخلاص الوحيد هو الهجرة الى اسرائيل أو تقديم كل مساعدة ممكنة لها على الاقل .

وهذا هو الباعث الدفين لمقال باكان الذى يزعم أنه يحلل الباعث الدفين لكتاب فرويد !

ويمضى باكان فى دعم نظريته بتفسيرها فى ضوء معاداة السامية ، فهو يزعم أن فرويد عاش طول حياته يعانى من شعور عميق بالتفرقة ضده كيهودى ، وأن الكتاب نفسه قد وضع فى فترة كارثة كبيرة كان يتعرض لها اليهود ، فقد كتب فرويد جزءا منه فى فيينا عندما كان شبح هتلر يلوح فوق كل النمسا ، وجزءا منه فى لندن عندما فر اليها هاربا من الخطر النازى ، ولذلك فان هذا

الكتاب الذى يمثل قمة اهتمام فرويد بالمسألة اليهودية لا بد أن يكون بمثابة رد فعل على نحو ما الظروف الخارجية التى يعانيها كاتبه ، ولذلك أيضا فان اقول بأن فرويد كتبه كرد فعل ذاتى لتجربته ازاء معاداة السامية لا يمكن أن يكون خاليا من الحقيقة .

ويقول فرويد فى كتابه « موسى والتوحيد » ان الدوافع العميقة لنزعة معاداة السامية تضرب بجذورها فى الماضى البعيد وترجع الى الحسد الذى يثيره اليهود فى الشعوب الأخرى بزعمهم انهم شعب الله المختار ، ولا تستطيع الشعوب الاخرى مقاومة هذا الشعور بالحسد والكراهية كما لو كانت قد اقتنعت بصحة فرض اليهود !

وهنا نتوقف قليلا للرد على فرويد نفسه فى هذه النقطة فنقول ان نزعة الكراهية التى أثارها اليهود لدى الشعوب الأخرى لا ترجع الى انهم يثيرون حسدهم كشعب الله المختار ،وفرويد نفسه يلمس ضعف رأيه حين يضيف ملاحظا « كما لو كانت الشعوب الأخرى قد اقتنعت بهذا الفرض » ، وانما ترجع الى رد فعل هذه الشعوب ازاء تصرفات اليهود فى الحياة الجارية وما درجوا عليه من السعى للحصول على النفوذ المعنوى والمادى بكل الطرق الوضيعة المتجردة من الانسانية ، وكذلك ترجع الى اسلوبهم فى معاملة الآخرين وهو

الأسلوب الذى ينبثق من الفكرة التلمودية التى تقسم البشر الى يهود وجوييم ، ومن حق اليهود أن يخدعوا الجوييم ويرتكبوا ضدهم كافة الجرائم التى يحرم ارتكابها داخل الدائرة اليهودية .

ونتابع الآن أفكار باكان ..

انه يتساءل : والآن كيف يمكن أن تساعد فكرة أن موسى كان أجنبيا فى التخفيف من قوة معاداة السامية ؟ ان فرويد يقول بصراحة ان موسى يرجع اليه سبب الكثير من العداء الذى واجه الشعب اليهودى ولا يزال يواجهه ، فكما رأينا كان فرويد يعتقد أن أساس معاداة السامية يكمن في الفكرة اليهودية عن «الشعب المختار» ولكن هذه الفكرة يعارضها فرويد بأن اليهود ليسوا شعب الله المختار وانما هم فقط شعب موسى المختار ، فهو يقول « حقا اننا قد نسمع فى بعض الأحيان عن شعب يتخذ له الها جديدا ، ولكننا لم نسمع مطلقا عن اله يختار شعبا جديدا غير اننا ربما استطعنا أن نجد تفسيرا لهذا الحدث الفريد عندما نتأمل العلاقة بين موسى والشعب اليهودى ، فان موسى قد نزل الى اليهود ، وجعلهم شعبه ، أى جعلهم « الشعب المختار » .

ويمضى باكان فى نفس الأسلوب فيقول : المعروف انه فى أزمنة الاضطهاد يتشكك بعض اليهود فى صحة العهد الذى بينهم وبين الله ، ففى خلال القرنين السابع

عشر والثامن عشر نشأت بين اليهود بسبب الاضطهادات اتجاهات الحادية تعتبر أن شريعة موسى كانت مناسبة فى الأزمنة القديمة فحسب ولكنها لا تناسب العصر الحديث ، فكان جاكوب فرانك مثلا يؤكد ان التوراة قد ماتت ، وكان يصنع من أغلفتها الجلدية احذية يرتديها ، ثم جاء فرويد ليجدد عدم الاعتقاد فى اله موسى بتجسيد الاله فى الصورة الآدمية لموسى الذى جعلهم يعيشون عدة آلاف من السنين فى حالة خداع النفس ، فان موسى الذى لم يكن هو نفسه يهوديا ،أعطى اليهود ايحاء بتلك الفكرة البديعة وهى أن لهم علاقة خاصة بالاله ، وهى الفكرة التى جرت عليهم الاضطهاد .

ومرة أخرى نلاحظ ان باكان لا يتعرض لمناقشة آراء فرويد موضوعيا وانما يهاجمه من وجهة نظر دينية بحتة باعتباره مارقا عن الدين اليهودى تحت وطأة معاداة السامية ، ونحن لا ننكر احتمال أن يكون فرويد قد تأثر على نحو ما فى حياته بمعاداة السامية ولكن ذلك لا يقلل من قيمة آرائه من الناحية العلمية ، فهو لا يلقى كلاما على عواهنه بحيث يمكن تفسيره بأنه رد فعل شخصى بحت ، وانما يقدم حججا تاريخية ومنطقية يجب أن تدحض بحجج مماثلة ، وهذا ما يتهرب منه باكان دائما .

وعلى أية حال فان باكان لا يلبث أن يصل الى نتيجة تثير الدهشة ويزعم انها محور قصد فرويد

الدفين ، فيقول انه لما كان فرويد يؤكد ان موسى ليس يهوديا ولما كانت المعتقدات التى أعطاها موسى لليهود هى السبب فى تعرضهم لمعاداة السامية لذلك فان الكراهية ينبغى أن توجه الى موسى لا الى اليهود ! أو بمعنى آخر يريد فرويد أن يفصل الخصائص الموسوية عن صورة اليهود كجنس ، فان موسى فى رايه ليس يهوديا ومن ثم لا ينبغى أن يلام اليهود على « العبء » الذى ألقاه موسى عليهم ، فهو فى الواقع يطرد موسى من الشعب اليهودى ، ويقول العالم : لماذا تلوموننا على هذهالمعتقدات مادام الرجل المسئول عنها ليس يهوديا ؟ .

وهذا التواء واضح فى التفكير ، ومثله أن يقال : لما كان موسى المصرى قد أصابته ـ كأستاذه اخناتون ـ لعنة قومه لخروجهما عن العقيدة التقليدية ، ولما كان موسى هو المسئول عن عقائد اليهود ، ولما كانت عقائد اليهود هى السبب فى كراهية الناس لهم .. لذا فان نزعة معاداة السامية ترجع فى أصلها الى لعنة الفراعنة !!

ولاشك ان مثل هذه النتائج غير العلمية لابد أن تنشأ عن المقدمة الخاطئة وهى أن عقائد اليهود لا سلوكهم هى سبب الكراهية التى تعرضوا لها فى عصورهم المختلفة .

وبعد ذلك يشرع باكان فى تحليل الفكرة الرئيسية الثانية فى كتاب فرويد وهى أن موسى لقى مصرعه على أيدى اليهود ، وقد راينا أن هذه النتيجة استخلصها

سالين من دراسته لأسفار الأنبياء فى العهد القديم وهى تلقى الضوء على نفسية اليهود الجاهدة المتمردة ، ولذلك فان باكان يحرص ايضا على نفيها بنفس الاسلوب الذى حاول أن ينفى به مصرية موسى أى عن طريق تحايل نفسية فرويد ذاته على ضوء أفكاره وليس مناقشة هذه الافكار موضوعيا ، فهو يقول ان موسى يذكر فى حديثه عن تشويه التوراة « أن تشويه النص لا يختلف عن قتل انسان » وان هذا بالتحديد ـ فى رأى باكان ـ ما يفعله فرويد بكتابه « موسى والتوحيد » الذى يشوه تاريخ اليهود ، فهذا الكتاب فى حد ذاته هو اذن جريمة اغتيال .. اغتيال موسى !

ويمضى باكان فى هذا الهراء كأنه قد أثبت فعلا أن الذى قتل موسى هو فرويد لا اليهود ، فيقول ان فرويد هو القاتل الحقيقى لموسى بكتابه هذا الذى يعد اكبر تشويه لتاريخ اليهود فى العصر الحديث ، ان فرويد هو الذى قتل موسى ، وهو في كتابه «موسى والتوحيد» يشير الى اغتيال موسى باعتباره جريمة قتل للأب ، وهذا تعبير عن عقدة أوديب التى كان يعانيها فرويد والتى اعترف بها فى كتابات أخرى ، ولكنه هنا يضع موسى مكان أبيه الحقيقى .. ويغتال ذكراه !

ولكن لماذا يقتل فرويد موسى ؟ ان باكان يجيب على ذلك بأن فرويد كان يرى فى جريمة اغتيال اليهود لموسى

الأب تفسيرا الشعور بالاثم الذى يحسون به كجنس ، والذى يحس به فرويد كيهودى ، ولكن اذا كان من الضرورى ان يقتل اليهود موسى لتفسير هذا الشعور لديهم فان فكرة أن موسى كان مصريا تخفف على نحو ما من هذا الشعور بالاثم ، فان فرويد عندما يجعل موسى مصريا يحل نفسه واليهود من شعور الاثم المرتبط بفكرة قتل الأب ، فان قتل موسى المصرى هو ببساطة قتل أحد أعضاء جماعة سبق أن اضطهدت اليهود بل هو بمثابة قتل العدو الكلاسيكى اليهود ، فالجريمة اذن ليست بالجريمة التى ينبغى ان تجلب احساسا متوارثا بالذنب ، وعلى ذلك فان فرويد بوصفه هذا الكتاب يريد أن يصنع من نفسه بطلا جديدا فى تاريخ اليهود .. بطلا رسالته تخليص اليهود من الشعور بالاثم ، وهى نفس رسالة المسيح !

هذا ملخص واف لرد الكاتب اليهودى رافيد باكان على آراء فرويد ، وهو كما ذكرنا فى سياق العرض يهدف الى التأثير على القارىء — ولا سيما القارىء اليهودى والغربى عموما — بفكرة أن فرويد لم يقدم نظرية موضوعية تستحق المناقشة بقدر ما قدم وجهة نظر شخصية يستحق أن تحلل نفسيته على هداها ، وهذا أسلوب غريب وماكر فضلا على أنه تعسفى وغير مقنع ، فهو يفعل ما يفعله المحامى الذى يلجأ الى تجريح

شخص الشاهد ليتوقى مناقشة حججه ، فى حين أن فرويد قدم نظرية متماسكة تقوم على براهين وحجج تاريخية ومنطقية ونفسية وينبغى لهدمها أن تدحض بنفس الوسيلة أى بالحجة الدافعة . ولكن باكان لم يقل شيئا موضوعيا فى تفنيد الاسم المصرى الذى يحمله موسى ، أو تحليل أسطورة الميلاد ، أو تفسير أوجه التشابه العجيب بين ديانتى آتون وأدوناى ، أو اثبات حقيقة وأصل عادة الختان ، أو الرد على فكرة ثنائية التاريخ اليهودى ، أو تأكيد أن موسى الخروج هو موسى مدين ، أو توضيح العلاقة بين يهوه وأروناى وألوهيم ، أو نفى فكرة تصحيف وتشويه أسفار العهد القديم .. وغير ذلك من الأفكار الموضوعية التى ساقها فرويد .

ان ما يمكن ان يخرج به قارىء مقال باكان هو أنه يريد اعتبار العقيدة اليهودية كما وردت فى الكتب الدينية والتراث حقائق لا يرقى اليها الشك ، ومن ثم لا ينبغى مناقشتها رفضا أو تأييدا ، واذا قام أحد وليكن هو فرويد نفسه بهذه المحاولة ، فلا ينبغى مناقشة محاولته موضوعيا وانما يكفى البحث عن مقاصده الخفية وأمراضه النفسية فى ضوء هذه المحاولة .

وهذا حجر على حرية الفكر بل ارهاب فكرى يعتمد على أسلوب التجريح والتشويه والمغالطة ، وهو الأسلوب النمطى للفكر اليهودى الصهيونى الحديث .

- ١٢ -

فرويد وأوديب واخناتون

والواقع ان محاولات تجريح فرويد عن طريق تحليله نفسيا كثيرة ، لقد ذاق فرويد من نفس الكأس التى سقاها للآخرين ونام بدوره على مشرحة التحليل النفسى لتعبث به أصابع ماهرة أو غير ماهرة ، ومن أوضح الأمثلة على التحليل التعسفى الذى تعرض له فرويد ذلك الذى قام به تشارلس مايلان فى كتابه « عقدة فرويد المأسوية » The Tragic Comlex of Freud فهذا الكتاب أقرب الى السب العلنى منه الى التحليل النفسى، فعند مايلان انفرويد يعانى من عقدة « غرام الطفولة » التى سببت له ندوبا نفسية دائمة ، فقد ارتبط فرويد بحب أمه طفلا وحقد على أبيه واحتقره منذ قص عليه عندما كان الابن فى الحادية عشرة كيف تعرض الأب فى شبابه لاهانة لم ينتقم منها ، فقد قص عليه أبوه فى مجال التدليل على أن عهد الابن أفضل

من عهد الأب كيف ارتدى يوما بمناسبة أحد الأعياد اليهودية أفضل ملابسه وخرج يتنزه على أفريز الطريق فأقبل مسيحى وطوح بقبعته المصنوعة من الفراء والقاها فى الطين وصاح فيه : ابتعد عن الافريز أيها اليهودى .

ويقول مايلان انه الى جانب عقدة أوديب كان فرويد يتقمص أيضا شخصية هانيبال عدو روما بسبب أن فرويد كان يعتبر روما قلعة للمسيحية الى درجة أنه كان يتوقى المجىء اليها كلما زار ايطاليا ، كما كان يتقمص أحيانا شخصية هاملت الذى يظهر له شبح والده يطالبه بالثأر لمقتله . وكان شبح والد فرويد يتدخل فى حياته فينزل به رعبا يشل حركته ويحدث به صراعا عصابيا .

وعند مايلان أن فرويد يمثل مركبا دراميا من أوديب وهانيبال وهاملت والتشيع للسامية وعقدة التضحية بكل ما فى هذه العقدة من حقد مرير وحب فى الانتقام (١)

وتجدر هنا الاشارة الى كتاب آخر أعتقد أنه وضع خصيصا لمقاومة أثر كتاب فرويد « موسى والتوحيد » فى أذهان القراء ، ولكن مؤلفه كان من الذكاء بحيث لم يفصح عن هذا الغرض علنا بل جعل اشارته الى فرويد وكتابه كأنها تأتى عرضا .. ذلك هو كتاب « أوديب واخناتون »

---

(١) الاحلام والجنس : تأليف جوزيف جاسترو ــ ترجمة فوزى الشتوى ــ الالف كتاب .

لايمانويل فليكوفسكى (١)

وفكرة كتاب فليكوفسكى أن البطل الاسطورى الاغريقى أوديب الذى قتل أباه وتزوج أمه لم يكن سوى الملك المصرى أخناتون ، أما كيف جاءت الاسطورة فعن طريق انتقال سيرة أخناتون وأسرته من مصر الى بلدة طيبة الاغريقية فى العصر المسينى وذلك فى زمن معاصر لزمن الأحداث المصرية أى فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، وهناك أضفت عليها العقلية الاغريقية عنصر القدر وصاغت منها أسطورة ظلت تتناقل شفاها بضع مئات من السنين حتى ظهرت فى أوديسة هوميروس التى كتبت فى أوائل القرن السابع قبل الميلاد ، وبعد ذلك صيغت الأسطورة صياغات متعددة فى مسرحيات كتبها أيسخولوس وسوفوكليس ويوربيدس وآخرون فى القرن الخامس قبل الميلاد ·

ويحوى الكتاب مقارنة عميقة ذكية بين عناصر أسطورة أوديب وحقائق حياة أخناتون ، وهو يورد عشرات الادلة التاريخية التى تثبت وحدة الاسطورة والتاريخ ، فالوحش الأسطورى المعروف بأبى الهول الذى ظهر لأوديب وهو يتقدم نحو طيبة لم يكن سوى أبى الهول المصرى وقد ظهر فى عهد الاسرة الثامنة عشرة فى صورة الالهة حاتحور التى كلفت بافناء البشر ، وطيبة اليونانية ذات البوابات

---

(١) ترجم هذا الكتاب الى العربية فاروق فريد ، ونشرته دار الكاتب العربى ·

السبع ما هى الا طيبة المصرية ذات المائة باب ، ولايوس والد
أوديب فى الاسطورة هو امنحوتب الثالث والد اخنــــاتون
وفكرة أن أوديب الغريب عن طيبة يتربع على عرشها نجد
أصلها فى اعتلاء اخناتون عرش مصر رغم أن طفولتهمجهولة
تماما والمرجح أنه لم يكن يعرف شيئا عن شئون المملكة بل
كان يبدو كغريب عنها لأنهقضى طفولته فى ميتانى . وكذلك
تتشابهالصفات الجسديةبين أوديب وأخناتوناذ انالاسطورة
تصف أوديب بأنه كان مشقوق القدمين بسبب تعليقــه
منهما طفلا عندما أراد أبوه التخلص منه كما أن اخناتون
كان متورم الفخذين كما يبدو فى صوره وتماثيله ، وكلمة
« أوريبوس » معناها « ذو الساقين المتورمتين » . أما قتــل
أوديب لأبيه فيمثله تحطيم أخناتون لاسم أبيه امنحوتب
الثالث وتماثيله . وأهم من كل ذلك يؤيد فليكوفسكى نقلا
عن شواهد تاريخية وأثرية أن أخناتون تزوج من أمه «تى»
وأنجب منها فتاة هى « بكتاتن » كما فعل أوديب عندمــا
تزوج من أمه «جوكستا» وأنجب منها «انتيجونى » ، وفى
نفس الوقت كان أخناتون متزوجا من « نفرتيتى » وكانت
لأوديب زوجة ثانية هى « اوريجينيا » ونالت الاثنتان عارا
ومهانة من زوجيهما . أما كريون شقيق جوكستا الذى كاد
لأوديب ونسله واغتصب حكم طيبة فما هو سوى « آى »
شــــقيق « تى » الذى فعل نفس الشىء بأسرة اخنـــاتون
واغتصب عرش مصر ، كما خلع كل من أوديب وأخناتون
بعــد سخط شعبى ومجاعة نتيجة لغضب الآلهة على الملك

العـاصى ، وأصيب كل من أوديب وأخنـاتون بالعمى ، وكذلك فان العـراف الاعمى تيريسـياس الذى تنبأ بمصير أوديب وكريون هو العراف المصرى امنحوتب بن حابو كما يطابق فليكوفسكى بين أبناء أوديب وأبناء أخناتون فان بولنيـكس بن أوديب الذى هاجم طيبة ولقى ميتة غير مكرمة هو سمنكارع بن أخناتون الذى لقى نفس الميتة، أما تتيوكليس بن أوديب الآخر الذى احتفل بوفاته بكل تبجيل فهو توت عنخ آمون الذى لقى نفس التبجيل بعد وفـاته لأن تتيوكليس انضم الى حزب خاله كريون وتوت عنخ آمون انضوى تحت ولاء خاله آى .

ولا مجال للاستطراد فى هذه المقارنات الشائقة لأنها تخرج عن نطاق البحث ، ولكن النتيجة التى يؤكدهـا فليكوفسكى أن أخناتون هو أصل أوديب ولذلك فان فرويد الذى اكتشف عقدة أوديب قد أخطأ عندما افترض أنه ما من أساس تاريخى يعد مصدرا انبثقت منه فكرة الاسـطورة القديمة بل اعتقد أنها انبثقت من احساس دفين يكمن فينا جميعا ، ويعرب فليكوفسكى عن دهشته لأن فرويد لم يدرك أن أوديب بطل كتابه الأول « تفسير الاحلام » وأخناتون بطل كتابه الأخير « موسى والتوحيد » كانا شخصا واحدا ، ويقول فليكوفسكى انه « لو كان في مقدور الملك أخناتون أن يتعدى حدود الزمن ليسـتلقى على أريكة محلل نفسى لكشف التحليل فى بدايته عن مظاهر ذاتية أو نرجسية ، عن ميول شذوذ جنسى مقترنة بسادية مكبوتة وظواهر تخنث

على وشك الظهور ، وعن انبثاق واضح لم يكبت لعقدة أوديب » (١) .

وهكذا يهدف فليكوفسكى الى تحليل أخناتون سيكلوجيا تابذا الهالة الدينية والتاريخية التى تحيط به كرائد لفكرة التوحيد ، ويخلص الى أن اخناتون لم يكن أكثر من شخص مريض نفسيا ، معقد جنسيا ، مذنب أخلاقيا. والملاحظ أن فليكوفسكى لا يقدم تقييما لعقيدة آتون بل هو ينزع عنها هالة التوحيد ويعتبرها نوعا من عبادة الشمس ودليلا على ما كان يعانيه أخناتون من انفصام الشخصية.

ان كتاب فليكوفسكى رغم مادته العلمية ونسيجه الذكى كتاب متحامل الى حد بعيد على أخناتون يريد أن يجرده من كل فضل ويصمه بكل رذيلة ويحطم فيه الرمز الذى رأته البشرية فى أخناتون كأول من اهتدى الى أعمق الافكار الدينية وأعظمها تجريدا وهى وحدانية الله .

واذا استقرت هذه النظرة الى أخناتون فى الأذهان كانت بمثابة طعنة نجلاء لكتاب فرويد « موسى والتوحيد » فها هو معلم موسى وسيده كما يدعى فرويد لم يكن اكثر من انسان مريض ، معقد ، مذنب ، مارق ، انه الصورة الأصلية لأوديب الذى اكتشفه فرويد نفسه وقتل باكتشافه الوحش الكافى فى أعماقنا ، ولكن فرويد الذى حل لغز أوديب لم يستطع أن يحل لغز أخناتون بل وقع فى خطأ

---

(١) أوديب واخناتون : ص ٢١٧ .

بالغ عندما نظر اليه بكل هذا التقدير والاجلال وانزل موسى من أجله من علياء عرشه ليجعله مجـــــرد تابع فى بلاط أخناتون •

يقول فليكوفسكى : « يصــاب المرء بالدهشة عندما يقرأ هذا التبجيل الهائل الذى لقيه أخناتون على يد رجل ألف كتاب « مستقبل الوهم » وهو الكتاب الذى وصف فيه فرويد الدين – بل الاديان كلها – بأنه نوع من الاضطراب العصبى الذى ينجم عن الخوف والاكراه ، ومع هذا يرفض فرويد أن يعمل بمشرط تحليله النفسى فى جسد أخناتون كما لم يدرك فرويد أن عبادة الشمس لا يمكن أن يطلق عليها وحدانية الاله بل هى توحيد للعقيدة ، وان لم نفهم بواعث فرويد الداخلية يخدعنـــا اصراره على تأليف ونشر كتـــابه الأخير ، فما هذا الكتاب سوى انتقاص لقدر موسى وحط من شأنه ، فقد حط فرويد من شأن موسى عندمـــا أنكر أصالته وحرمه اياها ، كما هاجم شعب اليهود عندما حرمهم زعيما يقود جنسهم ، اذ جعل موسى مصريا ، وفى النهاية قلل من شأن اله اليهود عندما جعل من يهوه معبودا محليا أو مجرد روح شريرة تسكن جبل سيناء • لقد كان لفرويد وهو على أهبة الرحيل من حيـــاة طال أمدها أن يعلن اله اليهـــود ويحط من شأن نبيه على حين يمجد مرتدا مصريا معتبرا اياه مؤسسا لدين عظيم الشأن»(١) •

---

(١) أوديب واخناتون ص ٢١٤ ••

ويلاحظ فليكوفسكى أن فرويد كتب «موسى والتوحيد» تحت حالة اجبار ذاتى لأنه كان عليه أن يتغلب على عقبة رسخت فى ذاته عندما قرر نشر هذا الكتاب فى وقت كان هتلر قد أوضح فيه خطته لاهلاك شعب فرويد بل وازالته عن آخره ، ومع ذلك شعر فرويد انه مضـــــطر الى نشره اذ كرس حياته « ليعيش فى الحقيقة » مثلما عاش أخناتون وكان يعتبر نظريته عن موسى على حد تعبيره « شـــــبحا يستحيل الاحتفاظ به » .

ويقول فليكوفسكى ان هذا الاجبار فى ذاته دلالة على مرض نفسى فى ضوء تعاليم فرويد نفسه ، وهذا المرض هو كراهية الأب أو عقدة أوديب اذ كان فرويد مرتبطا بالحب بأمه بينما كانت مشاعره تجاه أبيه تقوم على الغيرة والكراهية كما كان فرويد يعانى صراعا داخليا حول ما اذا كان له أن يستمر فى التمسك بعقائد أجداده أو يرفضها ، وقد قرر فى منتصف حياته (عام ١٨٩٨) أن يمكث « فى معسكر هؤلاء الذين يئنون منذ القدم تحت عبء العبودية » ولكنه تعرض لهذا الصراع مرة أخرى فى أواخر حياته ، ويبدو أنه قرر فصم نفسه عن الشعب اليهودى وانعكس ذلك فى دراسته لموسى واخناتون .

ولذلك ، كما يقول فليكوفسكى ، عندما تناول فرويد أخناتون بالدراسة تغاضى عن كل خبراته السابقة ، وألقى بشتى أسلحة تحليله النفسى أرضا ، ويسمى هذا فى علم التحليل النفسى كبتا ، أو بمعنى آخر لقـــد كبت فرويد

• حقيقة أخناتون من أجل أن يدمر موسى نبى اليهود كرمز لانفصامه عنهم ٠

وهكذا ، يبدو أن كتاب فليكوفسكى «أوديب وأخناتون» الذى بدأ فى تأليفه عام ١٩٤٠ ـ أى بعد نشر « موسى والتوحيد » مباشرة ـ وانتهى منه بعد عشرين عاما انما هو محاولة بالغة الذكاء لتوجيه طعنة نجلاء الى كتاب فرويد الأخير دون أن يناقشه فى ذاته بل حتى دون أن يفتعل الاشارة اليه ، وكأن هذه الاشارة قد جاءت عرضا فى ثنايا الكتاب ٠

ولهذا أيضا أرجح ان ايمانويل فليكوفسكى انما هو كاتب يهودى ذو نزعة صهيونية ٠

رقم الايداع بدار الكتب
١٩٦٩/٥٢٩٣